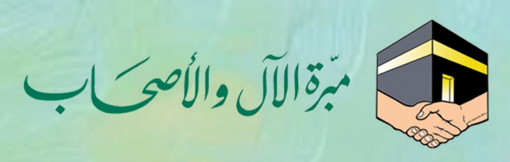




سلسلة الآل والأصحاب في الأدب العربي (٦)



من أثر الرسول ﷺ

رواية

مستوحاة من بعض وقائع التاريخ الإسلامي الأول

سامح بسيوني

من أثر الرسول ﷺ



عنوان الكتاب : من أثر الرسول ﷺ.

اسم المؤلف : سامح علي محمد بسيوني.

نوع المطبوع : كتاب - الطبعة : الأولى - عدد الصفحات : ٢٥٦

السلسلة : الآل والأصحاب في الأدب العربي (٦)

الناشر : مبرة الآل والأصحاب.

ص.ب. ١٢٤٢١ الشامية - الرمز البريدي ٧١٦٥٥٥ - ت : ٢٥٦٠٢٠٣

ردمك: ISBN ٩٧٨ - ٩٩٩٦٦ - ٦٤ - ٧٣ - ١

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢م



هاتف: ٢٢٥٦٠٢٠٣ - ٢٢٥٥٢٣٤٠ فاكس: ٢٢٥٦٠٣٤٦

ص. ب: ١٢٤٢١ الشامية الرمز البريدي ٧١٦٥٥ الكويت

E - mail: almabarrh@gmail.com

www. almabarrah. net





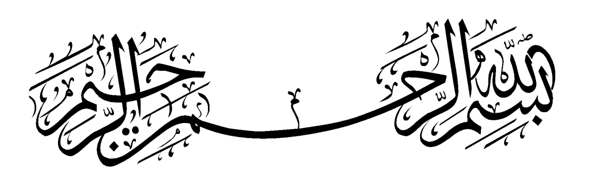
سلسلة الآل والأصحاب في الأدب العربي (٦)

من أثر الرسول ﷺ

رواية

مستوحاة من بعض وقائع التاريخ الإسلامي الأول

سامح بسيوني



مقدمة مبرة الآل والأصحاب

لا شك أن تقديم القدوات الصالحة من أصحاب النبي ﷺ إلىٰ عموم القرَّاء من أبناء الأُمَّة الإسلامية ـ بل وغيرهم ـ لأمرٌ في غاية الأهمية، حيث يوقِف الأُمّة علىٰ مكامن قوتها ومواطن تميُّزها، ويمثّل مرجعيةً قيمية وأخلاقية وسلوكية لا غنىٰ لها عنها.

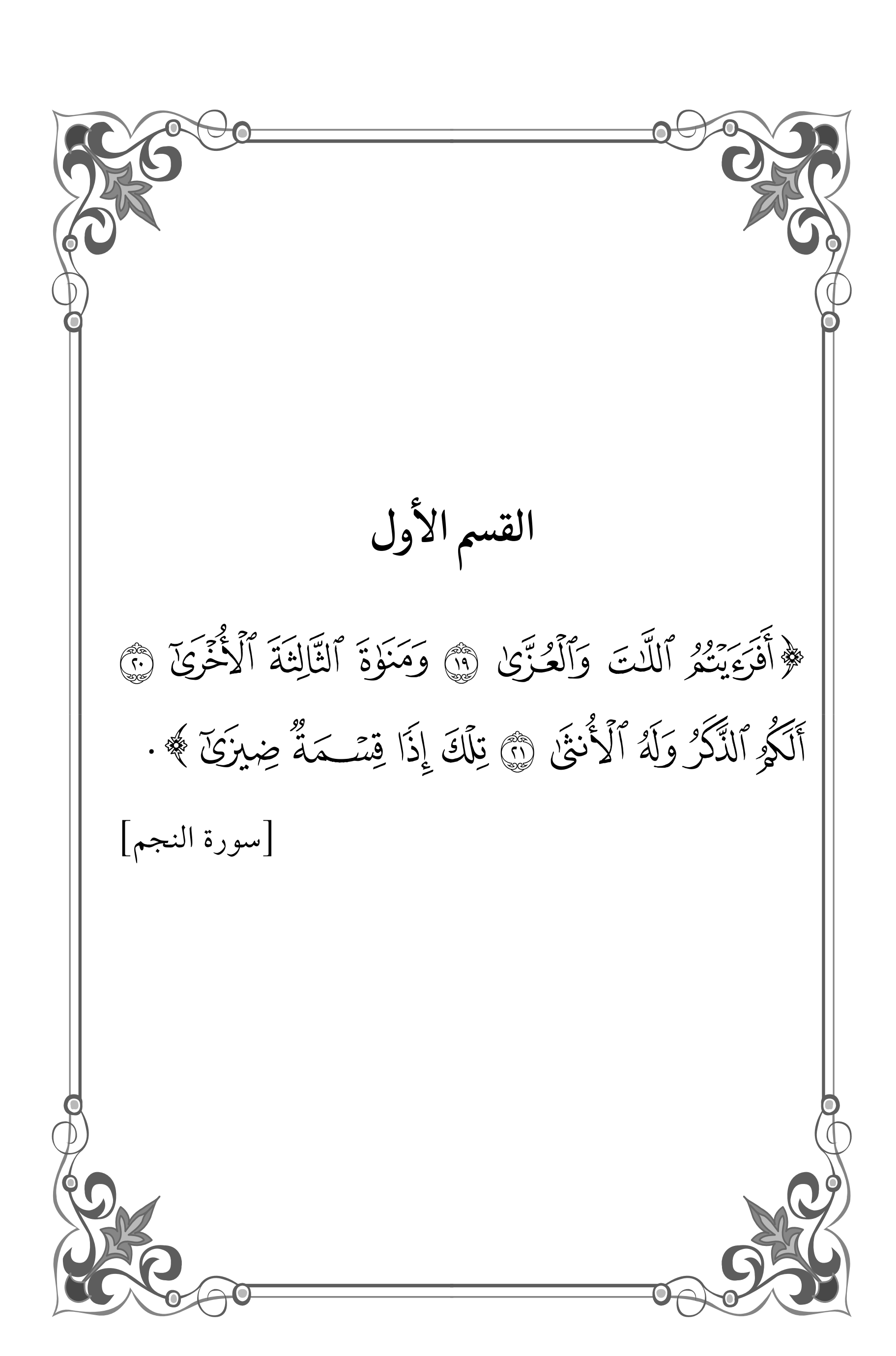
وقد دأبت مبرة الآل والأصحاب علىٰ تقديم سير الصحابة والجوانب المختلفة من علومهم وأعمالهم بطرقٍ متنوعة، ما بين البحث العلمي التاريخي، والتوعوي، والتراثي التحقيقي، إلىٰ القصص المصوّرة للأطفال والناشئة من المراحل المختلفة، فضلًا عن إقامة المؤتمرات وعقد الندوات والدورات واللقاءات الإذاعية والتلفزيونية المتعلقة بجوانب شخصياتهم وسيرهم العطِرة. ولم تُغفل المبرةُ العملَ الأدبي من رؤيتها، كيف والأعمال الإبداعية في عصرنا مِنْ أَشَدّ ـ إن لم تكن أشدَّ ـ الأعمال تأثيرًا في شرائح واسعةٍ جدًّا من المجتمع، فهي تقرِّب المعلومة في قالب أدبي إبداعي، يمسّ العاطفة، ويحرّك العقلَ في آن واحدٍ، ولاسيما إذا توفّرت لها عناصر التوفيق من حُسن الأسلوب ومتانة اللغة وجمالها والقدرة الفنية علىٰ التخيل والتصوير، مع صِحَّة المضمون. ومن ثَمَّ قدَّمت المبرة سلسلةً كاملة للصحابة وآل البيت في الأدب العربي، قدَّمت فيها الأعمال الشِّعرية الرائقة التي تصوِّر مناقب

الآل والأصحاب ومآثرهم، وكذلك أثرهم في البلاغة والأدب العربيين.

والآنَ تكشف المبرةُ النقابَ عن عملٍ أدبي إبداعيٍّ جديدٍ في هذه السلسلة، وتخوض غمار الروايات الطويلة للمراحل العمرية الراشدة والكبيرة للمرة الأولىٰ في سياق إصداراتها، حيث الروايةُ هي العمل الأدبي الأصيل والأكثر تأثيرًا في عصرِنا الراهن، حتىٰ كادت تأخذ مكانة الشعر الخالدة في تراثنا الأدبي القديم. حيث تعاونت المبرة مع أقلام أدبية رصينة، لها جهودها في ميدان الكتابة الأدبية والقصصية والروائية، فاقترحت عليهم وأوعزت إليهم الكتابةَ حول الشخصيات والأحداث الإسلامية المجيدة التي كان الصحابةُ وآل البيت أبطالَها، وكانت ثمرة لهذا التعاون، هذه الرواية التي بين يديك: «من أثر الرسول»، وهي رواية تستعرض عقدًا منظومًا من لآلئ الأحداث والقدوات العظيمة في تاريخ عصر النبوة، مع تركيز الرؤية من منظار شخصية جليلة هي السيدة صفية بنت عبد المطلب عمة النبي صلي الله عليه وسلم، وهي من الصحابة والقرابة، لتبرز الدور العظيم والمكانة البارزة للمرأة المسلمة في صدر الإسلام. فأتت الروايةُ نسيجًا ملهمًا من الأحداث المهمة للسيرة النبوية، مع بيان دور أبطال الإسلام من الصحابة والقرابة في دعم الإيمان والدفاع عنه في أهم مراحله، مع إلقاء الضوء علىٰ الدور الرائد للمرأة المسلمة، متمثِّلًا في شخصية فريدة، صحابية من أهل البيت، هي السيدة صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها، في قالَب أدبي ممتع، مع توخِّي صحّة المضمون العلمي كما تلتزم المبرة في جميع أعمالها العلمية والإبداعية.

نسأل الله أن ينفع بهذا العمل ، وأن يحقِّق هدَفه المنشودَ منه ، وأن يكون إضافةً مفيدة وممتعةً ، في آن ، في هذا المجال ، وأن يكون وفاءً ـ ولو يسيرًا ـ لحقِّ الآل والأصحاب علينا .

مبرة الآل والأصحاب



القسم الأول

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾.

[سورة النجم]

١ ـ الوأد

يحفر بِهِمَّةٍ عتيدة... في ترابٍ من ترابِ شبه جزيرة العرب..

بعض من أبناء قبيلة **قريش** يمرون عليه.. بنظرات بليدة..

يستمر في حفره.. العرق يقطُر من لحيته.. ليختلط بتراب الحر..

يزحف على سمعه صوت بكاء الوليدة.. ملقاة في خرقة بالقرب منه.. فوق التراب الناري الذي يلسع بشرتها الأولى..

كلَّما تصبَّب عرقُه كلما زاد من سرعة حفره..

يتوقف قليلاً.. يلقي بنظرة متفحصة للوليدة.. عيناه لا تمسُّهما شفقة.. إنما يقيس مقدار الوليدة بعمق الحفرة..

رغم يقينه أن مقدار العمق يفوق الوليدة بثلاث مرات على الأقل... استمر في الحفر!!

يقف ليزيد اللهاث.. يمسح من عرق جبينه بكفٍّ ملوَّثة بتراب..

ببطء وليس برفق.. يحمل بيديه الوليدة الباكية..

ينزلها ببطء.. ببطء.. في قعر الحفرة..

أناملها الصغيرة تعبث بشعيرات من لحيته.. يرتجف.. يكمل وضعها في قاع الحفرة..

بسرعة أكبر وأكبر يهيل على الحفرة وما فيها التراب.. يتضاءل صوت البكاء الصارخ الرضيع.. يتضاءل رويداً رويداً.. حتى يكون كأن لم يكن!

في طريق العودة يترنح كالثَّمِل.. وإن لم تطأ لسانَه قطرةُ خمرٍ منذ ليلة البارحة.. الليلة السوداء.. حين بُشِّر بالأنثى فظلَّ وجهه مسوَّداً وهو كظيم!

الآن هو بحاجة إلى أن يثمل ويثمل.. يشرب ويشرب.. حتى يتفجر الخمر ينابيع من مسامّ جسده..

تنتابه مشاعر متصارعة.. جميع المشاعر المتصارعة ما عدا الندم!!!

يخيل إليه أنّ شبحاً يسدُّ عليه الطريق.. الشبحُ متجسداً بالفعل أمامه وله رائحة ونفس وصوت.. يسمعه يقول:

ـ مالي أراك مُعفَّراً بالتراب؟.. ألا تستحمَّ يا رجل؟!

يرفع نظرَه إليه.. عرفه على الفور.. ومن في **قريش** لا يعرفه؟!!.. إنه من ساداتها بلا جدال..

عبد المطلب.. شريف الأهل والنسب..

ـ ماذا تريد يا **عبد المطلب**؟!!

ـ وأدت رضيعتك.. فعلت فعلة السوء الآثمة..

ـ وما شأنك؟.. إنها لي وليست لك!

ـ لو كانت لي لما طاوعني قلبي أن أفعل!

ـ تركتُ لك رقَّة القلب واستأثرتُ أنا بجفائه!

ـ وماذا اقترفتْ هي ؟

ـ لا أبتغي زيادة للقَيْنات.. القبيلة تعج بالنساء الفاجرات..

ـ تقتل ابنتك!!!!

ـ الجميع يقتلون.. كذلك يفعلون!

كانت الأيدي في **قريش** ملطَّخَةً بأتربة الوأد.. بصلابة القلوب..

الحفرة تلو الحفرة.. أحياناً بتتابع.. وتوافق في المواقيت..

والعين لا تدمع.. والقلب لا يخفق..

والأمهات بعيون مكتومة.. وقلوب مخنوقة..

الأنفس مشنوقة!

إن الآباء إذا فعلوا نَفْعَلُ.. هكذا كانت العقيدة الراسخة..

مثلما عبدوا نعبد.. ومثلما يئدون نَئِدُ..

إنَّ الجديدَ لشرٌّ مستطير.. والأنثىٰ فقط هي الشر الجديد..

بينما الذَّكَر عِزٌّ وعُزوة.. الذكر لا يُسْبَىٰ ولا يَفْجُر ولا يرقص!!

الذكر أداة الحروب ووقودها.. هو السيد المطاع.. وإن أُسِر يقتل أو يُفتدَىٰ.. وهذا لعَمْري أَشْرفُ ألفَ مرّةٍ من سَبْيِ أنثىٰ!!!

هكذا يعتنق سادةُ قريش..

هكذا يطوفون بالكعبة المشرفة.. تحيطها أصنامُ الماضي المقدسة لديهم..

يوقنون أن الآلهة الصامتة لو نطقت لأمرتهم بوأد الأنثىٰ!

وهم يطيعونها دون حاجة لسماع صوتها.. أو صوت رسول لها..

الآلهة الصامتة الصلبة.. تصنع وهي مقدسة.. تتحطم وهي مقدسة..

قد تؤكل... وهي لا تزال مقدسة!!!!.. وما شأن القداسة بالوهن؟!!..
وما شأن القداسة بالمذاق؟

وما شأن القداسة بكل هذه العوارض التافهة!!!!!

إن **قريشًا** قد أرسوا وأجدادهم من قبلهم مفاهيمَ للقداسة.. ومفاهيم للقُرْبِ من الرب الواحد عند الموحِّد منهم..

الأصنام في فكرهم آلهة.. أو شفعاء لدىٰ الرب الواحد..

والكعبة قدس الأقداس..

والأنثىٰ نجَسٌ لا بَأْسَ بالتخلص منه.. إما بوأده في مهده.. أو بقذف الشهوة في معينه لينتج ذكوراً للحرب..

كل قدم تطأ بقعة من أرض **قريش** قد تطأ قبراً مختفياً لأنثىٰ موؤودة..

أُمٌّ.. دموعها تختلط بتراب الأرض.. هاطلة في جوف الأرض..

التراب الذي يغطي جثمان وليدتها..

الكفر بالكفر دينٌ.. الحزن والقهر ضد التقاليد الموروثة وقودٌ لدىٰ أمهات كثيرات..

سوف تظل الأنثىٰ استثناءً في **قريش**..

وسوف تبقىٰ الأمهات ثكالىٰ ببناتهن في المهد..

عبد المطلب هو من أكبر سادات قريش..

كان يختلي بنفسه في غار **حراء** بعدما يتأمل كثيراً في الأصنام المحيطة بالكعبة..

لم يؤمن يوماً بهذه الحجارة الصماء..

لم يؤمن بها كربٍّ ولا حتىٰ كشفيعة عند الرب..

إن الله لواحد.. خالق كل شيء.. يظل **عبد المطلب** يتأمل في الله الواحد وصفاته في غار **حراء**..

الله الواحد الذي لا يراه متجسداً، لكنه يراه في جميع ما خلقه..

هذا ما يُقنع عقلَه ولا شيء سواه.. لن يسجد لحجر.. يعلم أن الإنسان أعظم من أن يسجد لحجارة وطين..!!!

اعتاد المكوثَ بمجلسه عند الكعبة، ويلتف حوله رجال **مكة** و**قريش** ليتدبروا شؤونهم..

طلب البعض في هذا المجلس السقاية فسقىٰ لهم، مثلما كانت تجري الأمور دائماً..

انتوىٰ **عبد المطلب** إثارةَ أمر لم يكن يُثار.. أمر بالغ الحساسية..

ـ يا قوم.. إني لأراكم تقتلون بناتكم في مهدهن.. إن الإناث منهن أمهات صالحات.. لقد أنجبتكن ونشَّأنكن..

بدأت الأصوات تتشابك وتتعالىٰ..

ـ لن تكون بناتُنا سبايا للعدو

ـ سنظل علىٰ عادات آبائنا

يتكلم **عبد المطلب**:

ـ تعقَّلوا.. لن تعيش قريش بلا نساء.. ولن تسبىٰ كل نسائنا بأي حال..

زمجر أحدهم:

ـ فلنَدَعْ هذا الأمر من أجل ما هو أعظم.. حدثونا عن **أبرهة الأشرم**..

غشا الصمتُ بعد النطق بالاسم..



٢ ـ أبرهة

حاكم اليمن **أبرهة الأشرم** يتباهىٰ وسط تابعيه وسدنته..

يتفقد كنيسة **القُلَّيس** التي بناها وزيَّنها في اليمن..

لوَهْلَةٍ بدأ يتحدث إلىٰ جدران الكنيسة المزدانة باللآلىٔ:

ـ لابد أن تنعقد لك القداسةُ من الآن فصاعداً في جزيرة العرب.. لسوف أخضع العربَ وقريش إليكِ.. فليذروا الكعبة القديمة.. كنيستي أولىٰ بالتقديس.. وبالسفر إليها.. سوف أكون ملكَ ملوك العرب بلا منازع!!

تقدم إليه وزيرُه وانحنىٰ إليه.. سأله **أبرهة**:

ـ حان وقت المسير إلىٰ قريش.. إلىٰ الكعبة..

ـ الجيش علىٰ أهبّة الاستعداد يا سيدي..

ـ وماذا عن الفِيَلة؟!

ـ سيدي.. لست أدري لِمَ تُصِرُّ علىٰ الفيلة!

ـ سيدرك العرب مقدار قوتي.. سيطرتي.. عظمة جندي.. سأكون حاكماً لجميع العرب.. ليأتوا كنيستي خاضعي الرأس بعد أن أدمِّر كعبتهم القديمة..

لم يفهم الوزيرُ إن كانت هذه هي إجابة سؤاله ، أم أن حاكمه **أبرهة** يتحدث إلىٰ نفسه . . لعلها كانت كليهما . .

بدأ حلم تدمير الكعبة في نفس **أبرهة** قبل تشييد ووضع أول حجر في بناء كنيسة **القليس** . .

حلم السيطرة علىٰ العرب وإخضاعهم لِقِبْلَتِه هو . . وتقديسهم لكنيسته ولبانيها . **أبرهة الحبشي** . . فقط . .

بالفعل . . بدأ مسير جيش **أبرهة** . . إلىٰ **مكة** . . حيث **قريش** وحيث الكعبة .

يستمر الحديث في مجلس **عبد المطلب** عن **أبرهة** وما ينتويه **أبرهة** . .

ـ نعَمْ! الأنباء مؤكَّدة يا سيد **قريش** . . **أبرهة الأشرم** اعتزم المسير إلىٰ الكعبة بجيش لا قِبَلَ لنا به . .

ـ يريد إخضاعَنا لسيادته وكنيسته الجديدة . .

ـ الرجل يدعم جيشَه بالفِيَلَة ! !

هنا اعتدل **عبد المطلب** في جلسته ، هاتفاً :

ـ الفِيلة ! !

ـ نعم يا سيد **قريش** . . الكارثة أعظم من تحملنا . . لذا أردنا المشورة . .

يتنهد **عبد المطلب**:

ـ لدىٰ **أبرهة** جيوشٌ عظيمة.. ونفسه توَّاقة للسيطرة علىٰ جميع جزيرة العرب.. القتال لا قِبَل لنا به في هذا الموقف.. سنلجأ إلىٰ الله الواحد..

ـ اللات والعزىٰ سوف............

ـ سنلجأ إلىٰ الله الواحد.. هو ربُّ الكعبة.. وهو من سيحميها.. فلنحمِ نحن بيوتَنا ونساءنا..

المسير مُحتَشِدٌ.. في قلب الجيش العَرَمْرَمِ يتعاظم **أبرهة الأشرم** فوق فرسه الثقيل، وقطيع من الفِيَلة يتقدم الجيش..

كان الجيشُ قد اقترب جدّاً من مكة.. وقطيع من الإبل يرعىٰ..

تقدم **أبرهة** بفرسه العظيم، فانطلق الرعاة يَعْدُون، فأشار **أبرهة** إلىٰ رجاله فأتوا له بأحدهم..

سأله **أبرهة**:

ـ لمن هذه الإبل؟؟

ـ لـ.. سيد العرب...

زمجر **أبرهة** بقسوة:

ـ أنا سيد العرب.. من غيري؟...

ـ أ.. إنها.. لـ**عبد المطلب**!!

ابتسم **أبرهة** والتفت لرجاله:

ـ خذوها!

مال عليه وزيرُه بعدما اقترب بفرسه:

ـ سيدي.. أرىٰ أنه لا حاجة لاستفزاز العرب بما لـ**عبد المطلب**!

ـ فليأتِ إليَّ ليطلب إبله.. ولأنظر حينها في شأنه!!!!

ماذا ستفعل يا **عبد المطلب** بشأن إبلك؟... بشأن مواجهة **أبرهة الأشرم** المحتومة!!

يسير سيِّدُ العرب مع بعضِ الرجال إلىٰ حيث **أبرهة** يتقدَّم بجيشِه دانِياً أكثر من **مكة**.. لم تكن مسيرةُ **عبد المطلب** مسيرةَ قتال.. كان سيد العرب يُدرك جيداً مدىٰ قوة جيش **أبرهة** بخيله ورجله وعتاده... وفِيَلته!!!!!

تواجَهَ **أبرهة** و**عبد المطلب**..

علَتْ وجْهَ **الأشرم** ابتسامةُ نَشوةٍ..

ـ جئتَني راجياً يا **عبد المطلب**!!

ـ جئتُك مطالباً بحق لي..

ـ أوتريدني أن أتنحىٰ عن كعبتكم؟

ـ لا.. بل أريدك فحسب أن ترد عليّ إبلي..

ـ أنتم تعظمون البيت ، ولم تسألني عنه وتسأل عن إبلك ؟

ـ أنا ربُّ الإبل ، وللبيت ربٌّ يحميه . .

اختلىٰ **أبرهة** بوزيره جانباً ، والذي نصحه :

ـ من الأفضل أن ترد عليه إبلَه يا سيدي . . لقد عرفنا أننا لن نُقابَل بقتال ولن يحولَ بيننا وبين البيت حائِلٌ . . أمّا إن استلبنا إبلَه فلا ندري ما قد نواجه!

ـ ويحك يا رجل!! . . أنخشىٰ هؤلاء ولدينا جيشٌ عظيم مثل هذا ؟!!

ـ إنّ سَلْبَ الإبلِ ليس غايتنا . . وإنه لا يليق بك . . وقد تحقق غرضك وأتاك سيدُهم راجياً . .

أشاح **أبرهة** بوجهه غاضباً ، فاستمر الوزير :

ـ إنما أتينا من أجل سلب بيتهم . . لا سلب إبلهم . . فلتكن غايتنا عُظْمَىٰ . .

وقَبِلَ **أبرهة** بإعادة الإبل لـ**عبد المطلب** .



٣ ـ الفيل والميلاد

الكعبة شامخة واقفة.. وجيش **أبرهة** القابض يقترب أكثر فأكثر..

الفِيَلَة تصيح ويتعاظم دبيبُ أرجلها الثقيلة..

راح الناس من أهل **قريش** يَجْرُون هاربين إلىٰ الجبال المحيطة بالكعبة..

وتعلَّق **عبد المطلب** بأستار الكعبة قائلاً:

- لاهُـمَّ إنَّ العبـدَ يَمْنَـعُ رَحْـ ❁ ـلَـــه فـــامنع رِحَالَـــك
لا يغلـــبنَّ صـــليبُهم ❁ ومِحـــالَهم أبـــدًا محالَـــك
فانصـــر علـــىٰ آل الصليـــ ❁ ـــبِ وعابديـه اليـومَ آلَـك

كانت **هالة بنت وهب** زوجة **عبد المطلب** في أطوار الولادة الأخيرة..

صرخاتها تعلو ممهدة لمن ستطأ قدماها الدنيا حديثاً..

بينما **عبد المطلب** غائبٌ عنها.. يشغله شاغل الكعبة.. البيت الحرام المهدد بالدمار..

كانت **آمنة** أخت **هالة** هي الأخرىٰ في النزع الأخير من ولادتها.. ولكنّ سعادة كبيرةً غمرتها مع ألم الولادة..

زوج **آمنة عبد الله بن عبد المطلب** كان مستبشراً هو الآخر لما رآه في رؤياه حول المولود المنتظر..

على بعد خطوات من الكعبة ..... توقفت الفِيَلةُ .. جَمُدَتْ ..

راح أبرهة يصرخ في رجاله لتحريك الفيلة ..

الرجال توتروا .. ارتعدوا ..

ثم بدأت السماء تغيم قليلاً .. وانشق العدم عن طيور ..

طيور عجيبة لم يرها أحد من قبل .. راحت تلقي بأحجار صغيرة ..

الأحجار تحرق من تصيبه .. تعالت الصرخات المعذَّبة ..

تشتَّت الجيش ..

في ذات اللحظة ولدت **هالة**. رضيعة جميلة ..

ابتسم أبوها **عبد المطلب** لمرآها وحملها بين كفيه ..

بكفيها الصغيرتين بدأت الرضيعة تعبث بشعيرات من لحيته ..

لاقته زوجته **هالة بنت وهب** بنظرة خوف .. رعب:

ـ إياك أن تنتوي ....

أسكتها بنظرته الحاسمة:

ـ أشعر أن **صفية** لن تقل قوة وسنداً لي عن إخوتها الرجال .. نعم أسميتها **صفية** .. لن أئدها ، ومعاذ الله أن أفعل هذا ، ولا أن يخطر ببالي ...

واختلى **عبد المطلب** بنفسه كما اعتاد في دار **حراء**.. يشكر ربه على ما رزقه به من وليدة..

تبعه أحدُ أقرانه وراح يجادله:

ـ أَبُشِّرتَ بالأنثى ولا تزال على حالك!

ـ ويحك.. أنا لست بقاتل.. ولسوف يكونن لـ**صفية** شأنٌ عظيم في المستقبل!

أنا أشكر الله عليها.. وعلى مولد حفيدي أيضاً.. لقد عم النور مكة جميعها.. ألم تدرِ يا رجل؟

نعم وُلِد **محمدٌ**.. نوراً ملأَ الأرجاء..

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.. حفيد **عبد المطلب**..

في مجلسه لدى الكعبة أوصى **عبد المطلب** الجَمْعَ:

ـ يا قوم.. لا قتال لمستصغر الأشياء.. لا قتال بلا تعقل.. إن ما يسمى بالفَجَار لابد له من نهاية.. لقد استحلت الأشهر الحرم، وقطعت الأرحام.. وأكل بعضُنا بعضًا، كفى!

قيل:

ـ إن قبائل **قيس عيلان** يبتدئون دائماً بالشر!

ـ لابد أن نعقل الأمور على أية حال!



٤ ـ فَتَّاك العرب

صفية الطفلة تلعب مع أقرانها.. كانت تسمع بأذنيها الصغيرتين عن ما يسمىٰ بحرب الفَجَار الدائرة بين قبيلة كنانة **ومنها قريش** وبين قبائل قيس عيلان **ومنهم هَوَازن وغَطَفان وسُلَيم وثقيف ومُحَارب وعَدوان وفَهْم**..

كانت تعرف أن القتال يكون للعِزَّة..

وأن السيف للنصر.. وللنصر يلتمع النَّصْل..

الدماء خمر المنتصر.. وسُمٌّ المنهزم..

وأن **قريش** للأبطال الظاهرين علىٰ أعدائهم فقط..

إلا أن منهم فتَّاكاً.. من العرب فتاك.

الفتك هو الهمُّ بالشيء وفعله، بجرأة وشجاعة..

كان **البِرَاض بن قيس بن رافع الضمري الكناني** يدرك جيداً معنىٰ الفتك.. ومن أفتك من **البراض**؟!!

يعيش **البِرَاض** كما يريد.. أو كما يظن أنه يريد..

كان **البراض** من بني ضمرة من كنانة.. وكان بنو ضمرة قد طردوه بسبب أفعال الفتك والصعلكة..

ثم حالف **البراض** **بني سهم** من **قريش**..

في مجلسه مع الصعاليك، راح **البراض** يشاركهم في رشق المارة بحجارة صغيرة موجعة.. يضحكون ويتصايحون..

مرَّ شيخٌ كبير بجَمْع الصعاليك، وبدأ يتحدث برصانة صارمة:

ـ وَيْحَكم.. ماذا تقترفون؟..

وقف **البراض** مبتسماً:

ـ نتصعلك يا عمّ.. إن الحياة لهو ولعب..

ـ إن ما تفعلونه لا يليق بشباب مثلكم.. حتىٰ الصبيان لا يفعلونه!!

ـ الرصانة سجن.. ولن نسجن أنفسَنا في عين الوقار الخربة من آخرين.. سنكون أنفسَنا يا شيخ، نلهو ونلعب، وما يهلكنا إلا الدهر..

ثم انحنىٰ **البراض** وتناول إناءَ ماءٍ، وهمَّ بالشرب قائلاً:

ـ لكنني ربما أفكر فيما تقول.. أحياناً أجد أن شيئاً من التعقل لن يضر..

تنامتْ شِبهُ ابتسامةٍ لدىٰ الشيخ:

ـ لَكَمْ آمُلُ لكم التعقُّلَ جميعاً أيْ بَنِيَّ..

ارتشف **البراض** رشفةً من الإناء:

ـ ثم ماذا نفعل؟.. أعني بعد أن نكف عن إلقاء الحجارة..

ـ يا ولدي . . تجدون كثيراً تفعلونه . . القوم هناك في السوق يقرضون الشعر . . هناك من يتجهّزون لقتال . . ومنهم من يعمل بالتجارة أو الرعي . . ومنهم . . . . . .

قاطعه:

ـ ومنهم من يئد رضيعته . . أو يهيّج الحرب لمُسْتَصْغَرِ شَرَرٍ. أَوَسَمِعْتَ بحَرْبِ الفَجَار ؟ . . ربما أكون بطلاً لفجارٍ آخرَ . . ومنهم من يقبِّلُ الترابَ تحت قَدَمَيْ صنَمٍ أجوفَ . . أو يسجد لتمثالِ تمْرٍ فإذا جاع أَكَلَه . . سوف أسجد إذن لأطيب طعامٍ لي . . لكنني لن آكُلَه!

ثم يضحك **البراض** مع ضَحِك بقية الصعاليك . .

أما الشيخ فيرتفع حاجباه:

ـ أَوَتَسْخرُ من آلهتنا وآلهة أبائك وأجدادك! . . بل أنت تكفر بالآلهة!

يرتشف **البراض** رشفة:

ـ أنا أكفر بنفسي التي بين جنبيَّ . . من أنا لأكون فتّاكاً صعلوكاً . . أما آن لي أن أكون أكثر تعقلاً . . معك حقٌّ يا عماه . . لقد عرفتُ وسأَلْزَم!

ـ تُحَيِّرُني يا فتى . . لكنني بدأت أثق بك . . سوف تتحوَّل إلى الأفضل . .

وتتسع ابتسامة الشيخ بينما يهم **البراض** أن يرتشف:

ـ معك حق يا عماه.. سوف أتحوَّل....

يقذف **البراض** بالماء كله في وجه الشيخ فيغرق الوجه واللحية، وينتفض المذكور علىٰ وقع ضحكات الصعاليك، و**البراض**:

ـ .... إلىٰ سحابة تُمْطِر.. وتُبْرِق.. وتُرْعِد...

وتجلجلت ضحكاته لتطغىٰ علىٰ ضحكات صعاليكه..

والشيخ غاضباً، محاولاً اعتصارَ لحيته التي تقطر ماءً:

ـ عليك ألف لعنة يا فَتَّاك.. عليك ألف مائة لعنة.. لسوف أخبر وَلَدي.. سوف تعرف كيف تُهين شيخاً من **هذيل**.. ولسوف يفتك ولدي بك!

يبتعد الشيخ مسرعاً، ويميل صعلوك علىٰ **البِرَاض**:

ـ إنَّ ابنَ هذا الشيخ شابٌّ قاسٍ.. ذو بأس شديد!!!

يرتشف **البراض** رشفة من الإناء الخالي، ويبتسم:

ـ لا عليك، فَلَسْتُ بالذي يخاف!

يسير الشاب البئيس ابن الشيخ بحثاً عن الفَتَّاك:

ـ دلوني علىٰ الخسيس الذي أهان أبي!

اندفع اثنان من الصعاليك يسدَّان الطريق:

ـ رويدك يا رجل.. أخطأ صاحبنا ولسوف يقبِّلُ رأسَ أبيك.

لطمهما البئيس معاً فسقطاً أرضاً يتألَّمان في آن واحد!

واستمر البئيس في سيره صارخاً:

ـ أين هو الدنيء؟

يأتيه صوت من خلفه:

ـ أنا الدنئ!

يلتفت البئيس خلفه فيواجهه الخواء، ليباغته الصوت من يمينه:

ـ أنا **البِراض**.

يدير البئيس رأيه يميناً، فتقابله كومة رمال تنحشر في عينيه وأنفه، وتدخل في فمه، فيصرخ ويسعل متألماً!!

ثم يشعر البئيس بكرة حديدية تدكُّ بطنَه وتُؤلم معدتَه فينثني ألماً وهو لا يقوىٰ علىٰ فتح عينيه الممتلئتين بالرمال.. يشعر بعصًا فولاذية تقصم ظهره فيسقط أرضاً من جراء عرقلة بشيء لا يعرفه..

كان **البراض** قد استغل التراب الذي قذفه في عينيه واندفع برأسه إلىٰ بطن البئيس وضربه بمرفقه في ظهره المنثني ثم بقدمه فأسقطه أرضاً..

وقبل نهوض البئيس من آلامه استلَّ سيفَه وراح يطوِّح به في الهواء محاولاً أن يهمَّ بفتح عينيه.. إلا أن الصوت جاءه من فوقه:

ـ وأنا الخسيس!

وشعر البئيس لوهلة برأسه يطير بعيداً عن جسده.. ثم انتهىٰ شعورُه جميعه!

وطوح **البراض** بسيفه الدامي في الهواء ضاحكاً:

ـ تباً لكم يا قبيلة **هذيل**.. مَن أَفْتَكُ من **البِراض**؟!

الخيول تجري وتدور بحثاً عن أثر **البراض**.. إلا أنَّ الفتَّاك وكأنه لم يولد!

من بين الغبار المتطاير برزت رأسُه ببطءٍ حذِر.. يتحسس **البراض** بعينيه الطريق حتىٰ إذا اطمأن إلىٰ الخواء نهض وسار..

كان قد فكر في ملاذه الآمن بعد فعلته السوداء.. خاصة وهو يعلم أن قبيلته **بني سهم** قد خلعتْه..

حرب بن أمية العبشمي القرشي.. سيد كنانة..

كان يعلم حب هذا الرجل للمغامرة وحاجته إلىٰ أن يُؤَمَّنَ مِن فَتَّاك..

لذا لم يُعِقْه أعوان الرجل كثيراً وسمحوا **للبراض** بأن يدخل إلىٰ لقاء **حرب** حيث يقيم..

سأله **حرب** في خشونة:

ـ ما الذي أتىٰ بالفتَّاك المخلوع؟!

ـ أريد أن أحالفك.. لَأُكونَنَّ خيرَ سنَدٍ وعَضُدٍ لك.. أنا بارع في

الرمي والسيف.. ذوعقل ناطق وقلب جارح..

ـ إني قد رأيتُ قومَك خلعوك وكرهوك!!!

ـ وأنت إن رأيت مني مثل ما رأوا فأنت بالخيار إن شئت أقمتَ على حِلْفِك وإن شئتَ تبرَّأتَ مِنِّي.

ـ ما بهذا بأس.

وهكذا حالف **حرب بن أمية البراض**..

سرعان ما أصبح **البراض** مقرباً من **حرب بن أمية**، وصار يستعين به للفَتْكِ ببعض أعدائه..

إلا أن هذا لم يَرُق لرجل من قبيلة **خزاعة**، حيث إن الأخير كان يطمع في التقرب من سيد **كنانة حرب بن أمية** منذ ما قبل ظهور الفتَّاك!

كان **البِراض** في هذا اليوم يباشر رعاة الغنم، وينظم عملهم، حيث أوصاه سيد **كانة** بأغنامه، لخشيته من سرقتهم أو شرودهم..

أراد الخزاعي أن يستفز الفتاك، فاقترب منه، و**البراض** يملي أوامره على رعاة الغنم، ونكزه بكتفه، فالتفت إليه **البراض** وملامحه جامدة هادئة، فقال الخزاعي:

ـ أَوَلَا تُحِسُّ يا رجل؟

ابتسامة صغيرة على شفتي **البراض**:

ـ الهواء شديدٌ هذا اليوم!

استفز هذا الخزاعيَّ، فزمجر:

ـ من تظنُّ نفسَك يا هذا؟

ـ أظنُّنِي فَتَّاكَ العرب!

ـ لا أُمَّ لك.. أنت منبوذٌ مخلوع.. ولسوف تُخْلَع من هنا عَمَّا قريب!

يصمت **البراض** ولا ينظر إليه..

فجأةً يُطير **البراض** رَأْسَ الخزاعي بضربة واحدة بالسيف!

ـ تباً لكم قبيلة **خزاعة**.. من أفتك من **البراض**؟!!

منذ اختفاء **البراض** راح الخزاعيون يبحثون عنه، يطلبون دم قتيلهم..

ذهب بعضهم إلىٰ **حرب بن أمية**:

ـ فَتَّاكُكَ قتل مِنَّا.. لابد لنا من رأسه!

ـ لست أدري أين اختفىٰ.. عرفت أن **البراض** حين يختفي لا يظهر إلا حينما يود الظهور!

استمر الخزاعيون في البحث من أجل الثأر.. واستمر **البراض** في غيبته.. وأسقط في يد قبيلة **خزاعة**!

في **اليمن** حيث أقام **البراض**.. لا أحد يعرفه، فتحرك بحرية.. علم أن **الهُذليين** يبحثون عنه.. وأن **الخزاعيين** يبحثون عنه..

إلا أن **البراض** لم يساوِرْه خوف..

كان يدرك أنّ الحياةَ قصيرة.. وأن تلك القصيرة لا ينبغي أن تضيع في جَوْف خَوْف..

كان هدف **البراض** هو **النعمان بن المنذر** ملك **الحِيرة**..

أخبره صعاليكُه أنَّ وفود العرب يقدمون إلىٰ **النعمان** فاندسَّ بينهم.. حاول الوصولَ إلىٰ لقاء **النعمان** إلا أن الحواجز البشرية حالتْ بينه!!

كان **النعمان بن المنذر** قد عدا علىٰ أَخِي **بلعاء بن قيس الليثي** سيد بني كنانة من **قريش** فقتله!

من يومها و**بلعاء بن قيس** يعتدي علىٰ لطائم **النعمان** وينهبها!..

وكان **النعمان** يعتزم إرسال لطيمة، وهي عيرٌ مُحمَّلة بالمِسك، إلىٰ سوق **عكاظ**، إلا أنه كان يدرك أن لطيمته الخطيرة تلك تحتاج إلىٰ حماية ضد **بلعاء**..

اجتمع **النعمان** بممثِّلي وفود العرب، وتسلل **البراض** إلىٰ هذا الجمع..

فقال **النعمان** يومئذ:

ـ من يُجيزُ هذه العير؟

فوثب **البراض** وعليه بردة له صغيرة ومعه سيف له قد أكل غِمْدَه من فرط حدته فقال:

ـ أنا أُجيزها لك!

فقال **عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب العامري الهوازني** وكان سيداً من سادات **قيس عيلان** يُقال له: الرَّحَّال، لرحلاته إلىٰ الملوك:

ـ أكَلْبٌ خليعٌ يُجيزها لك؟ أنا أجيزها لك علىٰ أهل الشِّيح والقَيْصوم من أهل نجد وتهامة!!

ـ أعلىٰ بني كنانة تُجيزها يا عُروة؟!!

ـ وعلىٰ الناسِ كلِّهم!!!

فدفع **النعمان** اللطيمةَ إلىٰ **عروة الرحال** وخرج الرحَّالُ بالعير.

أشد ما يكره **البِراض** أن يُهزم في تحدٍّ ما..

لذا خرج في إثر **عُروة الرحال** الذي تولَّىٰ شئونَ العِير في الطريق..

أدرك **البراضُ عروةَ** فسبقه.. جلس في موضع يراه **عروة** فيه وهو مع العير..

جلس **البراض** يستقسم بالأزلام..

فمر به الرحال فقال له:

ـ ما تصنع ؟

فقال:

ـ إني أستخير في قتلك!

فضحك **الرحال** وهو لا يَخشىٰ منه شيئًا ، لكونه بين ظَهراني قومه من غَطَفَان وهم من قيس عيلان دون الجريب إلىٰ جانب فدك بأرضٍ يُقال لها: أُوَارة ، قريب من الوادي الذي يقال له تَيْمَن فأنزل **عروة** اللطيمة . .

في نصف النهار ، بينما **الرحال** في خيمته يرتاح ، أُزيحَ سِتْرُ الخيمة ، فانتفض **الرحال** . . . . إنه **البراض** لا غيره!!!!

ارتعب **الرحال** من الجرأة الصلبة **للبراض**:

ـ كانت مني زلّة ، وكانت الفعلة مني ضَلَّة!

بضربة واحدة أطار **البراض** رأسَه بالسيف . .

رفع سيفه الذي يقطر دمًا أمام عينيه اللامعتين ، وأخذ يرتجز:

ـ قد كانت الفَعلة مني ضَلّة ❁ هلا علىٰ غيري جعلتَ الزلّة

فسوف أَعْلو بالحُسام القُلّة

ثم قال مفتخرًا ببطشه:

وداهية يهال الناس منها ❁ شددتُ لها – بني بكر – ضلوعي

هتكت بها بيوت بني كلاب ❁ وأرضعتُ المواليَ بالضروع

جمعت لها يدي بنصل سيف ❊ فخَرَّ يَميدُ كالجِذع الصريع

ثم غادر الخيمة بسيفه الدامي، صائحاً ليسمع رجال **النعمان**:

ـ أما بعد ذلكم، فإني قتلت **عروة بن عتبة الرحال** بأوارة، ومن أجرىٰ ما حضر فقد أجرىٰ ما عليه، إنّ غدًا حيث يثور الريح؛ يَنْكُثُني الأمرُ لك القبيح.

ثم استاق **البراض** عِيرَ اللطيمة حتىٰ وصل إلىٰ خيبر..

تبعه إلىٰ هناك رجلان من **قيس عيلان** هما **المُساور بن مالك الغطفاني** و**أسد بن خيثم الغنوي** يريدان رأسَه!

عرف **البراض** من الناس أنّ هذيْن يبحثان عنه.. وكان يعرف أنهما لم يرياه من قبل..

فاقترب **البراض** منهما فقالا له:

ـ هل أحسست رجلًا يُقال له **البراض** من **بني بكر**؟

فقال **البراض**:

ـ سألتما عن لصٍّ عَادٍ خليعٍ ليس أحدٌ من أهل خيبر يُدْخِله دارَه، ولكن أَقِيمَا ههنا وتلطَّفَا له عسىٰ تَظْفَرا به.

واختفي **البراض** طوالَ اليوم، ثم رجع إليهما، فقال:

ـ قد دُلِلْتُ عليه، فأيُّكما أَجْرَأُ عليه، وأمضى مَقْدمًا، وأحدُّ سيفاً؟

قال **الغنوي**:

ـ أنا.

فقال **البراض**:

ـ انطلق

وقال لـ**الغطفاني**:

ـ إياك أن تُريمَ المكان.

وخرج مع **الغنوي**، وظل يسير معه، حتى قاده إلى خربة من خربات يهود، وأوقفه عندها، وقال **البراض**:

ـ هو في هذه الخَرِبة وإليها يَأْوي، فأَنْظِرْني حتى أنظر أثمَّ هو أم لا.

ودخل **البراض** الخربة وحده، ثم غادرها قائلًا:

ـ هو نائم في البَيت الأقصى خلفَ هذا الجدار عن يمينك إذا دخلتَ، فهل عندك سيفٌ فيه صرامة؟

ـ نعم.

ـ يا أخا غِنًى! هاتِ سَيفك أنظرُ إليه أصارم هو؟

استل **الغنوي** السيف من غمده وناوله لـ**البراض**، الذي أطار به رأس **الغنوي** بضربة واحدة، ورفع السيفَ الداميَ عاليًا مبتسمًا بنشوته..

وعاد **البراض** إلىٰ حيث **الغطفاني**:

ـ ما رأيت أجبنَ ولا أَكْهَمَ من صاحبك، تركته قائمًا في الباب الذي فيه الرجل، والرجلُ نائم لا يتقدم إليه ولا يتأخَر عنه، فانطلق معي أنت.

فقال **الغطفاني**:

ـ يا لَهْفاه، انطلِقْ بي حيثُ أحببتَ!!

فانطلق **الغطفاني** و**البراض** خلفه، حتىٰ إذا جاوز **الغطفاني** بابَ الخَرِبة أخذ **البَرَّاض** السيفَ من خلف الباب، وأطاح برأس **الغطفاني**، وأخذ سِلاحَيهما وراحلتيهما!

دخل يهوديٌّ من **خيبر** مصادفةً إلىٰ الخربة، فصعِقَ لمَرْأَىٰ القتيليْن، فخرج مُبْلِغًا قومه، وكانوا يعلمون أن القتيلين قد أتيا في طلب **البراض** تحديدًا، فخمَّنَا أنه قاتلهما، فخرجت فِرَقٌ من يهود **خيبر** بحثًا عن رأس **البراض**.

ثم أرسل يهود خيبر إلىٰ **بشر بن أبي خازم الأسدي** من **بني أسد بن خزيمة** فأخبروه بقتل **الرحال** و**الغطفاني** و**الغنوي**، واستكتموه وأوصوه أن يُنْهِيَ بهذا الخبر إلىٰ **عبد الله بن جدعان التيمي القرشي الكناني** و**هشام بن المغيرة المخزومي القرشي الكناني** و**حرب بن أمية العبشمي القرشي**

الكناني ونوفل **بن معاوية الدؤلي الكناني** وبلعاء **بن قيس الليثي الكناني** وكانوا سادات **كنانة** وأشرافها..

أصبحت رأس **البراض** مطلوبةً من قبائل **كنانة** وقبائل **قيس عيلان** ويهود **خيبر**..

كان **البراض** مختبئًا لدىٰ صديق له هو **بشر الأسدي** وقال له **الأسدي**:

ـ وهل تخشاهم يا **براض**؟

استل **البراض** سيفه:

ـ رؤوسهم هي تخشاني.. ولو قُتِلْتُ سأُقْتَلُ ورأسي فوق كتفي!

ثم التفت إلىٰ صاحبه:

ـ إن **قيس عيلان** لن ترضىٰ أن تَقْتُلَ بسيِّدها غيرَ سيِّدٍ مِثْلِه.. أنا قتلت **عروة الرحال** سَيِّدَ **قيس عيلان**.. أَخْبِر بعضًا من سادات **قريش** أنَّ ساداتِ **قيس عيلان** يعدُّون العُدَّة للنَّيْلِ من أحد ساداتهم... وليس من **البراض** الذي ليس بسيد!

ـ شيطانٌ أنتَ يا رجل!



٥ ـ فِجَارُ البِرَاض

حيث يُقام سوق **عكاظ** في مكة وتجري الاستعدادات له، أتىٰ **بشر الأسدي** وحذَّر أهلَ **قريش** و**كنانة** بما قاله له **البراض** عن **قيس عيلان**..

وجرت استعدادات جيش **قريش** لبطش **قيس عيلان**..

بينما تنامىٰ إلىٰ سمع **قيس عيلان** أنَّ **قريشَ** تجيِّش لهم..

وجرت الاستعداداتُ والمناوشات بين الطرفيْن لمدة عام..

ولم يُقَم سوقُ **عكاظ** في هذا العام!

في **شمطة**.. اجتمع رجال **قيس عيلان** أولًا..

ثم أتىٰ رجال **كنانة**..

وقد جعلت **كنانة** علىٰ كلِّ قبيلة رأسًا يقودهم..

لم يكن **محمد** ﷺ قد بُعِث بعدُ، إلا أنَّه لم يكن مرتاحًا للمشاركة في هذه الحرب الوشيكة.. حربُ غضبٍ لا يُعْرَف فيها الحقُّ من الباطل..

إلا أنه كان بَعْدُ فتًىٰ، عليه أن يطيع أوامر الكبار..

كان يفكِّر في صغائر الأمور التي تُرَاقُ لأجلها دماء وأعراض..

كان جده **عبد المطلب** هو مَنْ وَلَّىٰ ابنَه **الزبير** قيادةَ جيش **بني هاشم**، وهو من أمر بأن يخرج **محمد** ﷺ مع هذا الجيش..

لم يكن **محمد** ﷺ يهاب القتال، وإنما كان فقط يفكر..

يفكر ويتأمل في غار **حراء**.. مثلما رأىٰ جدَّه **عبد المطلب** يفعل في ذات الغار..

كان يشعر أن كل ما يحدث من حرب ليس فيه من الحق شيء..

وأن هناك ربًّا واحدًا سوف يقضي أمرًا.. لكنّ الوقت غير معلوم!

لم يقترب قط من أصنام الحجارة لأنه يدرك أنها والعدم سواء.. إن الحجارة لا تنفع.. وإن أذته بعثرة أو صدمة فالفأس لها مفتتة وهازمة..

لا يمكن أبدًا أن يكون الإله أو شفعاؤه مهزومين!!!

سوف يظل علىٰ ما يعتقد رغم استهجان أقرانه.. سيكون الغار ملجأه وملاذه.. حتىٰ يجد الملجأ والملاذ الحقيقي.. وإنه علىٰ يقين من أنه واجده.. ولو بعد حين.

تجمَّعت قيسُ عيلان وجمعوا الجموع وقادوا الخيل فكانت خيلهم كثيرةً يومئذ، واستعانت بثقيف وتجمَّعت هوازن وسُليم جميعًا وثقيف وجسر بن محارب وغيرهم ممن لحق بهم من قيس عيلان متساندين، وعلىٰ كلِّ قبيلةٍ سيدُها..

كان اللقاء واقتتل الجيشان قتالًا شديدًا.. و**أبو العاص** يرتجز ويقول:

ـ هذا أَوَانُ الضرب في الأدبار ❊ بكـلِّ غَضَبِ صـارِمٍ مِـذْكَار

وانهزمت كنانةُ في هذا القتال، وقُتِل **العَوَّام بن خويلد الأسدي القرشي الكناني**، قَتَلَه **العاقرُ مرة بن معتب بن مالك الثقفي**، وتعرضت قريشُ للهجوم الضاري..

وسُمِيَ هذا اليومُ بيَوْمِ شَمْطَة، وهو موضع.

كان يومُ الشَّرِب، موضع قرب مكة.. وهو أعظم أيام حرب الفِجار..

خرج فيه ألفُ رجل من كنانة علىٰ ألف بعير.. وانهزمت قيسُ عيلان، وقتل من أشرافهم **عباس الرعلي في بشر من بني سليم**، وانهزمت ثقيف وبنو عامر، وقتل يومئذ من بني عامر عشرة..

كان **مسعود بن معتب بن مالك الثقفي** سيدُ هوازن وأحد سادات قيس عيلان قد ضَرَب علىٰ امرأته **سبيعة بنت عبد شمس القرشية الكنانية** خباءً، فترجَّتْه:

ـ إنني أخشىٰ علىٰ بني قومي.. أبغي منك عهدًا.. عاهِدْنِي أنَّ مَنْ دخَل خِبَائي مِن بني قومي فهو آمن.

ـ حسناً.. من دخل خباءك من قومك فهو آمن!

فراحت **سبيعة** توسِّع خباءَها ، فابتسم لذلك زوجُها:

ـ وسِّعيه . . لكن عهدي لك لن يشمل إلا من أحاط به الخباء . . وإنّي لأربطن بكل طُنُبٍ من أَطْنَاب بيتنا رجلًا من قومك!

ـ عندما تلاقي رجالَ قومي . . . سترغب أنت في توسعته!

ودار القتالُ بين الجيشين . . وانهزمت قيس عيلان . .

أتىٰ **مسعود** إلىٰ زوجته مُنَكَّسَ الرأس ، فقالت هي بثقة:

ـ ربما تطلب الأمان لبني قومك . . قلتُ لك سترغب أنت في توسعة الخباء!

ودخَل مَن استطاع من قيس عيلان إلىٰ خبائها مُستجيرين بها ، فجاءها حرب بن أمية القرشي الكناني سيد كنانة وقال لها:

ـ يا عمَّة مَنْ تمسَّك بأطناب خبائك أو دار حوله فهو آمن .

فأذاعت هي في قيس عيلان:

ـ من تعلَّق بطُنُبٍ من أطناب بيتي فهو آمن من ذمتي .

راح الناس من قيس عيلان ، يتسارعون إلىٰ ما حول خباء **سبيعة** حتىٰ شكَّلوا حلقةً كبيرة . . سُمِّي هذا الموضع بمَدَارِ قيْسٍ . . وأصبح مضربًا للمَثَل .

تواعدت الطائفتان أن يلتقيا في العام المقبل في سوق عكاظ . .

وكان **عتبة بن ربيعة العبشمي القرشي الكناني** يتيمًا في حَجْرِ ابن عمه

حرب بن أمية سيد قريش وكنانة، فضربه **حرب** وأشفق من خروجه معه، فخرج **عتبة** بغير إذن **حرب** علىٰ بعيره بين الصَّفَّيْن يُنادي:

ـ يا معشر مُضَر، عَلَامَ تَفَانُون؟

فقالت له هوازن:

ـ ما تدعو إليه؟

ـ الصُّلْح، فإنكم في شهر حرامٍ، وقد عَوَرْتُم مَتْجَرَكم، وانقطعت موادُّكم، وخاف مَن قَارَبَكم.

ـ لا ننصرفُ أبدًا ونحن موتورون ولو مِتْنَا مِن آخِرِنا.

ـ فالقوم قد وُتِروا، وقد قُتِلوا نَحْوًا مما قُتْلِتم وجُرِحوا كما جُرِحتم.

فقالت قيس عيلان:

ـ قتلانا أكثر من قتلاهم!

ـ فإني أدعوكم إلىٰ خُطَّة هي لكم صَلَاحٌ ونَصَفَةٌ، عُدُّوا القتلىٰ فإن كان لكم الفَضْلُ؛ وَدَيْنَا فَضْلَكم، وإن كان لَهُم؛ وَدَيْتُم فَضْلَهم.

ـ ومَنْ لنا بذلك؟

ـ أنا!

ـ ومَنْ أنت؟

ـ أنا **عتبة بن ربيعة بن عبد شمس**.

فَرَضِيَتْ قيسُ عيلان بذلك، وعدُّوا القتلىٰ فوجدوا أنّ قتلىٰ قيس عيلان كانوا أكثر من قتلىٰ كنانة بعشرين رجلًا، فَوَدَتْهم كنانةُ، ورَهَنَ يومئذ **حربُ بن أمية** ابنَه **أبا سفيان بن حرب**، ورهن **الحارثُ بن علقمة العبدري القرشي** ابنَه **النضر بن الحارث**، ورهن **سفيانُ بن عويف الحارثي الكناني** ابنَه **الحارث** في دِيَات القوم عِشرين دِيَةً حتّىٰ يُؤَدُّوها، وانصرف الناسُ كُلَّ وَجْهٍ وهم يقولون:

ـ حَجَزَ بين الناسِ **عُتبةُ بنُ ربيعة**.

فلم يَزَلْ يُذْكَرُ بها آخر الأبد، ووَضَعت الحربُ أوزارَها فيما بينهم، وتعاهدوا وتعاقدوا ألّا يؤذيَ بعضُهم بعضًا فيما كان بينهم من أمر **البراض** و**عروة** و**الغطفاني** و**الغنوي**.

شهد النبي ﷺ جميعَ أيام حرب الفِجار الرابع إلا يوم نخلة، وكان ضمن بني كنانة لكونه منهم. وكان عمر النبي ﷺ أوَّلَ ما شَهِدَ حربَ الفِجَار ١٤ سنة، وانتهت وهو ابن ٢٠ سنة.

وقد ذُكِر أن النبي ﷺ قال حول هذه الوقعة:

ـ قد حضرته مع عمومتي، ورميت فيه بأسهم، وما أحب أني لم أكن فعلت.. كنت أنبل علىٰ أعمامي.. ما سرَّني أني لم أَشْهَدْه، إنهم تعدَّوْا علىٰ قومي، عَرَضُوا عليهم أن يدفعوا إليهم **البِرَاضَ** صاحِبَهم فأَبَوْا.

٦ ـ صفيَّةُ والقتال بالشِّعْر

كان قد وقر في يقين **صَفِيَّة** أن القتال عندهم قد صار غاية ووسيلة..

وأن طعم الدماء صار له لذة..

والفِجار هي حرب وصراع من أجل قوة لا يمكن تخيلها..

تسمَّعت **صفية** بما يدور في أيام الفِجار.. ورجال الفجار.. وأحجار الفجار..

سمعت عن **البِراض**.. و**الرَّحال**.. و**الغطفاني**.. و**النعمان**..

رأت **البراض** بطلًا لا يُخْدَش.. يتحدَّث بالسيف.. ويقتل بالرهبة!

أوشكت أيام الفجار أن تضع أوزارَها.. وهي لا تسمع عن **البراض** خبرًا..

هل قُتِل؟.. هل عُذِّب؟.. هل افتُدِيَ؟..

أين ذاب مُشْعِلُ شرارة الاقتتال!

أم لعله صار فكرةً وَقَرَتْ في أذهان العرب.. قريش.. وغير قريش!

أم لعله لم يكن من قبل موجودًا.. إلاَّ في أذهان من قتلهم.. أو من قاتلوا بسببه..

كانت **صفية** تداعب في خفيةٍ سيفَ أخيها **حمزة** المغوار..

ورأت **حمزة** يشارك في بعض القتال.. والمبارزات..

تمنَّت أن تكون مِثْلَه.. بيدها السيف.. وبقلبها البأس..

الفتيات والنساء عند العرب للزواج والحمل.. وقد يَكُنَّ عند ميلادهن للوأد..

هي نَجَتْ من الوأد.. ولنجاتها مغزىٰ.. وهي موقنة من مغزاها. حتىٰ لو لم تدرِ كيف سيكون هذا المغزىٰ بعدُ.

هل للعقل أن يتخيَّل مثلَ هذا القلب المتّقد بين جوانح الشابة المتحمسة، التي شبَّت وترعرت عند أبٍ لا يكترث لهذه الأصنام شيئًا، ولا يرىٰ إلا الله ربًّا وخالقًا، تلك الشابة التي لا ترىٰ لهذه الأصنام من فائدة، إلا إيغال الصدور وتنكيس العقول، والقوم مُلتاثون في دمائهم لأدنىٰ سبب...

هل للعقل أن يتخيل **صفيةَ** حملت سيفًا ثقيلًا.. لا تدري كيف حملتِ السيفَ الثقيل.. في الوقت الثقيل..

وبنَفَسٍ أَثْقَلَ اتجهت إلىٰ كهفٍ مُزْدَانٍ.. تعلم أن به بعضًا من أكابر التماثيل الحجرية..

يدعوهم البعض شُفَعاءَ الله.. يدعوهم آخرون بالآلهة..

لم تكن تلك الحجارةُ تَعْنِيها كثيرًا..

كانت ترىٰ أباها بعيني زَهْو وهو يلتفت عن الحجارة الخرساء.. إلىٰ غار حراء... حيث تأمُّله.. وتَأَلُّمُه من الحيرة.. يسأل عن الله.. ويتمنىٰ أن يمُدَّ له الله بسببٍ متين.. سبب يمتد من أعالي السماء.. إلىٰ هذه الأرض..

سمعته **صفية** وهي تراقبه في غار **حراء** يهمس بهذه التأملات..

ولقد أتىٰ علىٰ ذهنها **محمد** ﷺ.. ابن أخيها **عبد الله**.. **عبد الله** الذي تُوُفِّي و**محمد** ﷺ بعدُ صبيٌّ..

لم تدرِ لماذا أتىٰ ابنُ أخيها علىٰ ذهنها وهي تتفكر في السبب المتين الممتد من السماء إلىٰ الأرض..

تعلم أن **محمدًا** ﷺ صادقٌ أمينٌ.. تعلم أنَّ به قوة وهيبة.. ليست في ضخامة الجسم وإنما في ثبات العقل ورجحانه..

رأت **محمدًا** ﷺ أيضًا يتأمل ويتعبد في غار حراء..

قد نتصور أنه راودتْها الفكرة أن تلجأ إلىٰ غار حراء مثلهما.. إلا أنها انتوت أن تتخذ ملجأً مختلفًا..

نتخيَّل أنها تمسَّكت بالسيف في يدها.. واقتربت أكثر من الكهف المُزْدَان..

كانت تعلم أنه بيتٌ لهؤلاء الآلهة.. أو أنصاف الآلهة.. آلهة الحجارة..

لربما آلمها ذراعاها تحت ثِقَل السيف.. إلا أنها تشبثت بالسيف أكثر..

لعله يحميها من الألم.. ومن بطش الأهواء.. وتلاطم الظنون..

الآلهة المزعومة صامتة في الظلام.. أعينها المتحجرة لا تلمع بالتأكيد.. لا تنبض.. لا ترمقها..

ليس لهم ألسنة لتهمس باسمها.. أو حتىٰ بسبِّها..

نتخيَّلها تشبَّثت بالسيف أكثر.. فلتنظر إليهم جيدًا.. إنهم لا يرتجفون!

كان عليها أن تبرهن لحالها أنّ قلبَها لا يعتوره خوفٌ ما..

لذا استجمعت جميعَ قواها ورفعت السيف بكلتا يديها.. وهَوَتْ..

أصابت الجسد الحجري لأحد أكابر الأصنام.. الصنم الصامد لم يُخْدَش.. إلا أنه ارتجف.. أو هكذا رأته.. مال عن مكانه.. ثم بدأ يهوي.. ببطء..

ارتطم بالأرض.. بقوة.. تكسرت بعض أجزاء جسده..

ارتجفت **صفية** لا شعوريًّا.. الصوت كان مكتومًا فربما لم يسمعه أحد..

عادت **صفية** بالسيف.. لم تدرِ إن كان أحد رآها مع السيف أم لا!

ومن يدري.. ربما حدث هذا حقًّا، أو كان يدور في خَلَدها...

وماذا إذا تمادينا في هذا الخيال لننظر ما قد يترتَّب علىٰ مثل هذه الوقعة!

في مجلسِهِ عند الكعبة اجتمع **عبد المطلب** مع سادات **قريش** ومنهم شبابها المبشِّرون..

قال الشاب **عمرو بن هشام بن المغيرة**، وكنيته **أبو الحكم**:

ـ سيدي.. لقد عبَثَ أحدُهُم بآلهتنا.. أحدهم أُلْقِيَ أرضًا وتكسَّرت بعضُ أجزائه..

زفر **عبد المطلب** بضيق:

ـ قلت لا داعي لطرح أمر الأصنام في مجلسنا هذا.. الأمر برمته لا يعنيني!

تكلم الشاب **صخر بن حرب بن أمية** وكنيته **أبو سفيان**:

ـ أنت سيدنا.. وينبغي أن تهتم بما نهتم حتىٰ لو لم يكن يعنيك!

ـ وماذا تريدونني أن أفعل؟.. صنم سقط، لعله من دون فاعل.. ويسهل ترميمه!

تكلم **عمرو** بشيء من عصبية:

ـ سيدي.. إن هذا الذي تسميه صنمًا هو من أكبرهم وأثقلهم.. لابد وأن أحدهم دَفَعَه.. أحد له بأس شديد!!

وأكمل **صخر**:

ـ ولابد أن يدفع ثمن فعلته..

قال **عبد المطلب**:

ـ أرىٰ أنه لم يُشَاهَدْ أَحَدٌ وهو يفعل!

قال **عمرو** بحذر:

ـ سيدي **عبد المطلب**.. لقد رأيتُ أمسِ شيئًا عجيبًا.. رأيت فتاةً تُغَادِر دار الآلهة في جوف الليل.. فتاة شابة.. تحمل سيفًا!!

اتسعت حدقتا **عبد المطلب**:

ـ تتفوَّه بالهذيان أيها الشاب.. وهل تقاتل الفتياتُ لدينا؟!!!!

ـ لست أدري يا سيدي.. لكنني أعتقد أنني رأيتها من قبل.. غالبًا أعرف من هي.. ومن والدها..

ـ من؟!!

ـ علىٰ الأرجح.. هي **صفية**.. ابنتك.

اكفهرَّ وجه **عبد المطلب**:

ـ أجُنِنْتَ يا فتىٰ؟

واندفع الناس ينهرونه، فأصر **عمرو**:

ـ نعم هي **صفية**.. من الواضح أنها لا تؤمن بآلهتنا مثلك يا سيدي.. إلا أنها تجاوزت.. فلم تنعزل فقط.. بل حملت سيفًا.. وضربت أحد أكابر الآلهة!!

قال أحد الشيوخ:

ـ لعلها لا تدري ما تفعل.. هي بعدُ فتاةٌ صغيرة..

اسمه **عمرو بن هشام بن المغيرة**.. كنيته **أبو الحكم**.. سوف يكنىٰ بعد ذلك بـ**أبي جهل**..

كان عاشقاً للأصنام التي يعتبرها قومُه آلهةً أو شفعاء للآلهة..

ولقد بكىٰ **عمرو** لِمَا أصاب الصنمَ الكبير..

استعان بذراعيه لإعادته إلىٰ مكانته.. بل وراح يرمِّم ما تكسَّر منه..

تأمل تشكيل حجارته البُنِّيَّة.. رائحة المسك التي تفوح منه.. قَسَمَات وجهه المغلظة بقوة حانية.. عروقه البيضاء..

من قال إن هذه التماثيل لا تتكلم؟

كثيرًا ما تحدث إليها.. وكثيرًا ارتدَّ إليه الكلام منها..

ربما كان صوتًا ـ فقط ـ داخلَ رأسه.. أو ربما كان صوتها خارج رأسه كصدىٰ لصوته.. ولم لا؟..

يدرك أن أمثال **عبد المطلب** الذين يؤمنون بغيبيات لا تُرىٰ، لن يفهموا تقديس المادة.. تقديس المحسوس.. الملموس..

سوف يظل **عمرو** علىٰ فطرته تلك.. التي يؤمن أنها فطرة سليمة..

لسوف يؤمن فقط بما يراه ويحسه ويلمسه..

ولسوف يكون من سادات قومه بعقله وحكمته..

بدأت **صفية** تدرك أن لديها سلاحًا خاصة في القتال.. ربما يكون أمضىٰ من السيف أحيانًا..

سلاح الشِّعْر..

لقد اكتشفت في نفسها القدرةَ علىٰ إنشاء الشعر..

لقد ولَّده فيها حماسُها لبطولات بني قومها فيما سُمِّيَ بحرب الفِجار..

بدأ هذا الشعر الحماسي يدبُّ في أوصالها وصار هو سيفها الذي يشبع غريزتها في إحراز البطولات..

لقد وجدت السيف ثقيلًا..

والشعر ليس ثقيلًا كالسيف.. وإن كان في وَقْعِه قد يكون أثقلَ وأهولَ

- ألا مَنْ مُبْلِغٍ عَنِي قريشًا ❁ ففيم الأمرُ فينا والأمارُ

لنا السلف المقدَّم قد عَلِمْتُم ❁ ولم تُوقَدْ لنا بالغَدْرِ نارُ

وكلُّ مناقِبِ الأخيار فينا ❁ وبعضُ الأمر مَنْقَصَةٌ وعَارُ

مات **عبد الله بن عبد المطلب** شقيق **صفية**، وبعده بفترة ليست طويلة

ماتت **آمنة بنت وهب**..

بعد موت أبوي **محمد** ﷺ، كفله **عبد المطلب** في داره..

وحينما توفي **عبد المطلب** كان عمر **محمد** ﷺ ثماني سنوات..

وحينما توفي **عبد المطلب** كانت **صفية** لا تزال تنتظر إنزال عقابه بها على واقعة الصنم.. هل كان عقابه هو انتظارها للعقاب ؟!!

بالتأكيد كان راضيًا عمَّا فعلته..

وكان ممّا قالته **صفية** من شعر ترثيه قولُها:

أَرِقْتُ لصوتِ نائِحَةٍ بليلٍ ❖ على رجل بقارِعَةِ الصَّعيدِ

ففاضت عند ذلكم دموعي ❖ على خدِّي كمُنْحَدِرِ الفريدِ

على رجلٍ كريمٍ غير وَغْلٍ ❖ له الفَضْلُ المُبينُ على العبيدِ

على الفيَّاض شيبةَ ذي المعالي ❖ أبيك الخير وارث كل جودِ

صدوق في المواطن غير نِكْسٍ ❖ ولا شَحْبِ المقام ولا سنيدِ

طويل الباع أروع شَيْظَمِيٌّ ❖ مطاع في عشيرته حميدِ

رفيع البيت أَبْلَج ذي فُضُول ❖ وغَيْث الناس في الزمن الجرودِ

كريم الجَدِّ ليس بذي وُصُوم ❖ يروق على المُسَوَّدِ والمَسودِ

عظيم الحِلْم مِن نفرٍ كرام ❖ خضارِمَةٍ مَلَاوِثَةٍ أُسُودِ

فلو خَلَدَ امرؤٌ لقديمِ مَجْدٍ ❖ ولكن لا سبيلَ إلى الخلودِ

لكــان مُخَلِّــدًا أُخْــرَىٰ الليــالي ❖ لفَضْــلِ المَجْــدِ والحَسَــبِ التَّليــدِ

وكانت توقن أنها ستفعل بالأصنام ما هو أكثر من ذلك.. حين تأتي الفرصة..

أو يأتي النور المنتظر من السماء..

النور المماثل لما تراه في وجه ابن أخيها **محمد** ﷺ.. وفي عينيه.. وفي قلبه..



٧ ـ قوة المرأة

تتزوَّج **صفية** من **الحارث بن حرب** أخي **أبي سفيان ـ صخر ـ بن حرب** زعيم بني **أُمية**..

وتستمر **صفية** رغم بدء حياتها الأسرية في البحث عن ذاتها.. بعيداً عن عبادة المادة.. تستمر في إنشاد أشعارها الحماسية..

كان وفاة ولدها الأول من زوجها هذا مُفْجِعًا لها.. لم تَرْثِه بالشِّعر، حيث عاهدت نفسَها أن يظل شعرها سيفًا لها.. لا دموعًا على وجنتيها..

صار **أبو سفيان** ـ أخو زوجها ـ رجلًا قويًّا في **قريش**، وزوجته امرأة قوية.. هي **هند بنت عتبة**..

عُرفت **هند بنت عتبة** أنها من النساء القلائل في **قريش** اللاتي يمتزن بقوة الشخصية وصلابة الرأي..

وكانت قد تزوجت **الفاكه بن المغيرة بن عبد الله المخزومي القرشي**.. وكان لديه بيتٌ للضيافة يأتيه الناس خاصة من عابري السبيل دون الحاجة لإذن مسبق..

وقد بات **الفاكة** مع **هند** يومًا في هذا البيت.. وفي الليل لم يكن **الفاكة**

بالبيت ، وجاءه عابر سبيل فدخل البيت ، فلما فوجئ بـ**هند** نائمة ، غادره علىٰ الفور ، فإذا بـ**الفاكة** في وجهه!!

صُعِق الرجل ، ولم يدرِ ماذا يقول وابتعد ، وشُلَّ **الفاكة** في مكانه فلم يلحقه.. ثم دخل إلىٰ **هند**.. هاتفًا:

ـ مَنْ هذا الخارج من عندك ؟

ـ والله ما انتبهت حتىٰ أنبهتني ، وما رأيت أحداً قط.

ـ الحقي بأبيك!

وخاض الناس في أمرهم ما بين مصدِّق ومنكر.. بينما كثر المنكرون حيث كان المعروف أن **هند** قوية حرة.. والحرة لا تزني أبداً!

وقال لها أبوها:

ـ يا بنية: أنبئيني شأنَك ، فإن كان الرجل صادقًا دسستُ عليه من يقتله فينقطع عنك العار ، وإن كان كاذبًا حاكمته إلىٰ بعض كُهَّان اليمن.

ـ والله يا أبت إنه لكاذب.

فخرج **عتبة** إلىٰ **الفاكة** فقال:

ـ إنك رميتَ ابنتي بشيء عظيم، فإما أن تبين ما قلت، وإلا فحاكمني إلىٰ بعض كُهَّان اليمن.

قال:

ـ ذلك لك.

ساروا جميعًا حيث بلاد الكاهن المقصود، وكانت **هند** قَلِقَةً في الطريق فارتاب أبوها:

ـ أي بنية، ألا كان هذا قبل أن يشتهر في الناس خروجُنا؟

ـ يا أبت، والله ما ذلك لمكروهٍ قِبَلِي، ولكنكم تأتون بشرًا يخطئ ويصيب، ولعله أن يَسِمَنِي بسِمَةٍ تبقىٰ علىٰ ألسنة العرب.

ـ صدقتِ، ولكني سأختبره لك.

ثم أوقف فرسَه، والتقط حَبَّةَ قمحٍ، أدخلها في إحليل الفرس..

وحين وصلوا إلىٰ الكاهن، قال له عتبة:

ـ إنا أتيناك في أمرٍ، قد خبأنا لك خبيئةً، فما هي؟

قال الكاهن:

ـ ثمرة في كَمَرة.

ـ أريد أبينَ من هذا.

ـ حبة بُرٍّ في إحليل مُهْرٍ.

ـ صدقتَ! فانظر في أمر هؤلاء النسوة.

فجعل الكاهن يمسح رأسَ كلِّ واحدةٍ منهن، ويقول:

ـ قومي لشأنك..

حتىٰ إذا بلغ إلىٰ **هند** مسح يده علىٰ رأسها، وقال:

ـ قومي غير رسحاء ولا زانية، وستلدين ملكًا يُسمَّىٰ **معاوية**.

فلما خرجت أخذ **الفاكه** بيدها فنزعت يده من يدها، وقالت:

ـ والله لأحرصن أن يكون ذلك الولد من غيرك!!

ووقع الطلاق بين **هند** و**الفاكة**.

قالت **هند بنت عتبة** لأبيها:

ـ يا أبت، إنك زوَّجتني من هذا الرجل ولم تؤامِرْني في نفسي، فعَرَضَ لي معه ما عَرَضَ، فلا تزوِّجْني من أحد حتىٰ تعرِضَ عليَّ أمرَه، وتبيِّنَ لي خِصَالَه.

ثم خطبها **سُهيل بن عمرو** و**أبو سفيان بن حرب**، فدخل عليها أبوها وهو يقول:

أتاكِ سهيلٌ وابنُ حرب وفيهما ❊ رضًا لك يا هِنْدَ الهُنُود ومَقْنَعُ

وما منهما إلا يُعَاش بفضله ❊ وما منهما إلا يضرُّ وينفعُ

وما منهما إلا كريمٌ مُرْزَأٌ ❊ وما منهما إلا أَغَرٌّ سُمَيْدَعُ

فـدونَكِ فاختـاري فأنـت بصـيرةٌ ❊ بل ولا تخدعي إنّ المُخَادِعَ يخدعُ

قالت:

ـ يا أبتِ، والله ما أصنع بهذا شيئًا، ولكن فسِّر لي أمرَهما وبيِّن لي خصالَهما، حتىٰ أختارَ لنفسي أشدَّهما موافَقَةً لي.

فبدأ أبوها يذكر **سهيل بن عمرو**، فقال:

ـ أما أحدُهما ففي سلطةٍ من العشيرة وثروة من العيش، إن تابعتَه تابعك، وإن مِلْتَ عنه حطَّ عليك، تحكمين عليه في أهله وماله. وأما الآخر فموسَّعٌ عليه منظورٌ إليه، في الحَسَبِ والحسيب، والرأي الأريب، مِدْرَهُ أرومَتِه، وعِزُّ عشيرتِه، شديدُ الغَيْرَة، كثير الطِّيرة، لا ينام علىٰ ضِعَة، ولا يرفع عصاه عن أهله.

ـ يا أبتِ، الأول سيِّدٌ مِضْيَاعٌ للحُرَّة، فما عست أن تلين بعد إبائها، وتصنع تحت جناحه، إذا تابعها بعلُها فأَشَرَتْ، وخافها أهلُها فأَمِنَتْ، فساءت عند ذلك حالُها، وقَبُحَ عند ذلك دَلالُها، فإن جاءت بولدٍ أحمقت، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت، فاطْوِ ذِكْرَ هذا عنِّي ولا تُسَمِّه لي. وأما الآخر فبَعْلُ الفتاة الخَريدَةِ، الحُرَّةِ العفيفة، وإني لَلَّتِي لا أُريبُ له عشيرةً فتُغِيره، ولا تصيبه بذعر فتضيره، وإني لِأَخْلَاقِ مِثْلِ هذا لمُوَافِقَةٌ، فزوِّجْنِيه.

فزوَّجها من **أبي سفيان**. فولدت له **معاوية**.

كانت **هند** تعلم أنَّ **صفية** امرأة قوية هي الأخرىٰ..

تعلم **هند** من زوجها **أبو سفيان** ما تحدِّثُ به **صفيةُ الحارثَ** أخا **أبو سفيان**..

حين شاهدت **صفية** زوجَها يسجد لصنم.. بادرتْه:

ـ أتسجد لحجر؟!!

ـ ويحك **صفية**.. إنه ليس بحجر!.. إنه إله يشفع لنا!

ـ لو رفعتَ عليه فأساً.. هل يبادر إلهك للدفاع عن أحجاره؟!!

ـ لا تسخري من شفعائنا.. لك ما تعتقدين، ولكن لا تسفهي من رأينا وآبائنا الأولين..

وحين وجد **الحارثُ** صنمَه قد تحوَّل إلىٰ كومة محطَّمة، أدرك أنّ **صفيةَ** لم تغادرْ بعدُ هوايتَها في تكسير أصنامهم.. واشتكاها لأخيه **أبي سفيان**..

ازدادت كراهيةُ **هند** لـ**صفية**.. فهي منافِسة لها في قوة الشكيمة، بالإضافة لحيازة **صفية** لفكر مختلف خطير.. إنها تكفر بآلهتهم وتجاهر بهذا الكفر.. بل وتحطم منها ما تطوله يداها..

لَكَمْ حدثت **هند** زوجَها بشأن **صفية**، بل وطالبته ببتر رأسها إلا أنه كان يحدثها باستمرار عن كَرَم نَسَبِ **صفية** ووالدها الراحل سيد **قريش عبد المطلب**..

حاولت **هند** ترميمَ الصنم الأخير الذي هدمته **صفية**.. لم تكن كامرأة تُجيد هذه الأعمال إلا أن شعورها بالقهر حرَّكها..

سَجَاح بنت الحارث.. امرأة أخرىٰ قوية من **بني تميم**..

نعم هي تعتنق الكذب.. إلا أنها تعتنق الشعر أيضًا..

والشعر والكذب شقيقان!.. أو هكذا هي ترىٰ!

وكانت العرب تقول: **فلان أكذب من سَجَاح** نظرًا لما اشتهر عنها من الكذب!

كان شِعْرُها مختلفًا عن شِعْر **صفية**.. فهو ليس شعرًا للقتال.. بل هو في الغرام تارة.. ولآلهة الحجر تارة.. ولمجد قومها تارة..

رغم الكذب إلا أن شأن **سجاح** كان يعلو بين بني قومها..

نوع من الكذب هو يسحر متلقِّيه.. حتىٰ ليجعله يصدِّق وهو يكاد يعلم أنه الكذب بعيني رأسه..

بعد فترةٍ بدأتْ رويدًا تتمرَّد علىٰ تقديس الأحجار.. وصار لها خَلْوَتُها..

سمعت عما تقول **صفية** إلا أنها لم تعلن اعتناقها إياه..

لم تكن بصراحة **صفية** في كفرها بالأصنام، ولا بصراحة **هند** في ولعها بعبودية للحجارة..

كانت **سجاح** ترىٰ أنها فوق كل هذا.. ربما لم يصر عقلُها في موضعه.. أو أنه ربما لم يكن لديها واحدٌ قط!

في يوم ما سوف تَقْتُل **صفية**.. هكذا تتمنَّىٰ **هند**.. ستَبْقُر بطنَها.. وتأكل كَبِدَها!

ليست هي بالمرأة التي تذر من يستهتر بدينها..

تكاد تغضب علىٰ زوجها الذي يمنعها من مواجهة **صفية**..

إلا أن **هند** تنتظر الفرصةَ التي ـ بغريزة الأنثىٰ ـ توقِن أنها آتية..

ستنال من **صفية**.. ومن كبد **صفية**.. في يوم...

تُوفّي **الحارث بن حرب**..

تتزوج **صفية** بعده من **العوام بن خويلد** أخي **خديجة بنت خويلد**، وتنجب منه **الزبير** و**السَّائِبَ** و**عَبْدَ الْكَعْبَةِ**..



٨ ـ عمر

في جبل العاقر.. وبه منازل بني عدي بن كعب..

نشأ **عمر بن الخطاب** في **قريش**.. امتاز عن معظمهم بتعلُّم القراءة. وعمل راعيًا للإبل وهو صغير..

كان والده يتابعه وهو يرعىٰ الإبل، وهو لا يزال مراهقًا أو ربما أصغر قليلًا.. يتابعه بعينين لا تُنْبئ عن اكتمال الرضىٰ..

يرىٰ ذراعي ابنه تنضحان بعضل مفتول مقارنة بأقرانه في عمره.. يرىٰ حقيقة ابنه في القتال.. في حماية الثغور من الأعداء..

لم يكن السيف ثقيلًا علىٰ الصبي **عمر** حين احتمله من يد أبيه.. لم يكن ثقيلًا وزنًا، وإنما ثقيل معنًىٰ..

إلا أن والده أنزل يده الثقيلة علىٰ وجهه الصغير.. كانت الصفعة التي سالت لها دماء وجهه.. ومع دماء وجهه سال كل ما اعتور قلبه من خوف أو رهبة..

كان والده غليظًا في معاملته.. يشتد عليه ليغير مساره في الحياة..

صارت الصلابة ديدَنه، والسيف رفيقَه.. اعتزل الإبل..

تعلَّم المصارعة وركوبَ الخيل والفروسية، والشعر..

وكان يحضر أسواقَ العرب، سوق عُكاظ وسوق مِجَنَّة وسوق ذي المجاز، فتعلَّم بها التجارة التي ربح منها وأصبح من أغنياء مكة..

أصبح **عمر** من أشراف **قريش**..

وقعت الحرب بين **قريش** و**غطفان**، وقَتَل القرشيون من الغطفانيين الكثيرَ..

وأصر الغطفانيون علىٰ الثأر الدموي..

إلىٰ أن برز زائر إلىٰ كبير الغطفانيين في مقره..

ـ شاب قرشي يُقال له **عمر**..

هكذا أخبر العبدُ سيدَه كبيرَ **غطفان**.. وقابل الأخير **عمر**..

ـ ما الذي أتىٰ بك يا **عمر**؟.. ألا تخشىٰ السيف؟

ـ بل السيف يخشاني.. ولن تزيد دمائي بحرَ الدماء دمًا..

ـ أهي شجاعة أم وقاحة؟

ـ شجاعة ولكن ليست لمزيد من الدم.. إنما شجاعة لحقن الدماء.. لقد أثخنتم قتلًا.. والدِّيَةُ خيرُ دواء!

ـ إنما الثأر هو الدواء!

ـ الثأر دواءٌ مُرٌّ.. وربما مسموم.. ستحتاجون لوقت كثير لترميم

جراحكم.. ولن تجود عليكم **قريش** بهذا الوقت!

ـ أتتحدانا في عُقر دارنا؟

ـ لا.. بل أعرض عليكم دِيَةَ القتلىٰ.. حتىٰ لا نثخن في الأرض..

وقَبِلَتْ **غطفان** الدية.. وكان اللقاء تطوعًا من **عمر** إلا أنه سرعان ما أصبح السفير الأول لـ**قريش** خاصة في الحروب..

كان حياة **عمر** مضطربةً جدًّا..

وكان إذا عاقَرَ خمرًا في هذه الجاهلية الجهلاء يلهو عن ذلك الاضطراب الذي يموج داخلَ كيانه..

إلا أن السَّكرة تتبعها الفكرةُ.. كانت تأتيه الاستفاقة بعد الأخذ والغياب..

إلا أنها كانت استفاقة مؤذية.. استفاقة تؤجج الهموم أكثر لتهرع النفس إليهما لتسكر ثانية.. ثم تكون الاستفاقة المؤذية.. وهكذا دواليك..

كان يشعر بالعبث.. فيلجأ إلىٰ الأصنام.. يؤمن بها.. أو هكذا كان يظن...

إلا أنه لا يجد تأثيرًا لوعودها.. وعودها التي سمعها عنها لا منها..

سيظل يتساءل:

أين كلامهم.. أين كتابهم؟!!

متىٰ ينطقون؟!!!

٩ ـ الكذاب

لقد اُختلِف في اسمه، فقالوا: **مَسْلمة بن حبيب الحنفي**، وقالوا: **مَسْلمة بن ثمامة بن كثير بن حبيب الحنفي**..

من الآن فصاعداً سنحكي عنه **مُسَيْلمة**، فهكذا اشتهر في التاريخ اللاحق..

فالحق إن شأنه كان صغيرًا كهذا التصغير الذي لحِق اسمَه إلىٰ الأبد!

وُلِد ونشأ في **اليمامة** في **نجد**..

الوشاح علىٰ كتفيه ورأسه أسود.. وقلبه متوارٍ بالداخل لا يُرىٰ..

جالسًا حوله أتباعٌ له.. بين الحين والحين يأتي أحدهم ليقبِّل يده..

يتبدَّىٰ وجهه من أسفل الوشاح إذ يرفع رأسَه ناظرًا قليلًا في السماء.. ثم يتكلَّم:

ـ النجوم مُخَيَّطَةٌ في جوف السماء.. تتبع الفلكَ أبدًا.. والشمس تنادي علىٰ الليل لعله ينقضي..

ثم ينظر في أسفله:

ـ الأرض تناجي سماءها.. لعلها تبلغ ما بلغت السماء.. والظل غير ظليل يستمدُّ النورَ لا النار.. وما أُراني إلا سأحلِّق.. قريبًا..

اقترب تابع منهم، وفغر فاه عن آخره:

ـ ما معنىٰ.....؟!

فتح **مسيلمة** فمه إليه متحمسًا، ثم لم ينطق بشيء، وعاد إلىٰ إمالة رأسه تحت وشاحه، وتمتم:

ـ وما يُدريني!!

نهض **مسيلمة**، وبدأ يسير بتُؤَدِة..

تابعون آخرون يتهامسون:

ـ النبي.. النبي **مسيلمة**..

يظل **مسيلمة** يسير في الأسواق التي بين العرب والعجم.. أَمَلُه أن يتعلم حيل الكهان والنجوم..

منذ اعتقد في نفسه النبوة وهو يرىٰ العالم من زاوية مختلفة.. لا يعرف كيف!، لكنه يعرف أنها مختلفة.. مختلفة وربما مختلقة أيضًا!

انشغل **مسيلمة** بالغموض والتكهن.. وعالم التنبؤات اللانهائي.. وقسوة الواقع القاحل..

جلس لدىٰ أحد المتنبئين يومًا، سائلًا:

ـ خبِّرني.. كيف ترىٰ **مسيلمة** هذا في القريب؟

ـ لا أراك!

تمالك **مسيلمة** أعصابه بصعوبة، وهو يعاود السؤال:

ـ أقول لك: كيف ترىٰ **مسيلمة** هذا في القريب؟

ـ يبدو أنك لا تسمع..

تنهد **مسيلمة** بشيء من غيظ، بينما يقول الكاهن:

ـ أو أنك لا تريد أن تسمع!

ـ كيف؟

همس المتنبئ:

ـ أليس ربما تتحوَّل إلىٰ نملة! فلا أراكَ ولا يراكَ غيري!

قام عنه **مسيلمة** محنقًا، يا له من كاهن متلاعبِ!

لم يعرف **مسيلمة** من نفسِه رأيًا عن الأصنام.. حسبه أنه لم يسمعها من قبل..

ـ سوف يُطوي العالم حتىٰ أراه أجمعَ.. ثم أشق منه ما يروي جهلي.. وأتنفسه هواء يسمو.. فأَقْنَعُ عن كل حاجة دَنِيَّة دنيوية!.. كل هذه الحاجات.. من أدناها.... إلىٰ أدناها!..

ـ ولكن.. مالي؟! أأنا جائع؟!...

ناظرًا إلىٰ ذبيحة تُشْوَىٰ بالجوار، يعبِّق بخارُها الأنحاء..

١٠ ـ الفارس الصغير

تُوُفِّي **العوام** زوج **صفية** الأخير.. ترك لها صبيًّا هو **الزبير**..

كانت **صفية** ترجو أن يُصبح قويًّا شجاعًا.. ذا قلب لا ينخدش..

جاءها الصبي **الزبير** باكيًا ذات مرة.. سألته بلا تعاطف:

ـ ما يبكيك ؟.. أو لم أَنْهَكَ عن الدّمع ؟!!

ـ الصِّبية.. ضربوني!

ـ لم يكن ينبغي أن تذرهم يفكرون في ذلك.. انسَ دموعك، واجمَعْ أصحابَك، واتفق معهم على الثأر من مبغضيك.. كن أنت قائدهم..

ناولتْه عصًا صغيرة مقطوعةً من جذع شجرة:

ـ خذ.. قاتل.. وادْفَعْ عن نفسك!

وجعلت أمُّه لُعَبَه في بَرْي السهام وإصلاح القِسِيِّ، وكانت تشجعه على خوض معاركَ مع أقرانه الصغار ليتدرب على الفروسية والحروب..

تمنَّت أن تجد فيه صورة عمِّه **حمزة** الفارس الكبير..

بدأت الأم **صفية** تدرِّب ابنَها على المبارزة بسيف صغير..

تدريجيًّا بدأ حجم السيف يكبُر..

ويزداد حتىٰ بدأ **الزبير** ينوء بحمله.. وحينما كان ينوء ويتكاسل عن حمل السيف والقتال والتدرب علىٰ القتال كانت يد **صفية** تمتد إلىٰ جسده الصغير.. وتضربه.... بقوة.. حتىٰ كادت عظامه أن تتضعضع!

كانت تضربه كي لا يخاف.. كي لا يبكي.. وإن بكي تزيد في الضرب!

عوتبت في ذلك من قِبَل أحد أعمامه حيث قال لها:

ـ ما هكذا يُضْرَبُ الولدُ... إنك تضربينه ضربَ مبغضة لا ضرب أم!

فارتجزت قائلةً:

من قال قد أبغضتُه فقد كذب

وإنما أضربه لكي يلب

ويهزم الجيش ويأتي بالسَّلَب

لن يمنع **صفية** أحدٌ أو شيءٌ عن تحقيق حلمها في ابنها **الزبير**.. سيكون الفارس الذي أرادته وارتأته.. الفارس الذي لم تستطع أن تكونه هي ـ فقط ـ لكونها أنثىٰ!



١١ ـ الرؤيا

لم يكن **أبو بكر بن أبي قحافة** مجرد تاجر ثري في **قريش**، بل كان من رؤساء **قريش** وأشرافها.. وكان عالماً بالأنساب.. وهو عِلْمٌ له جلالُه عند العرب..

بيد أنه لم يكن يعيب في نسَبِ أحد..

كان **جبير بن مطعم** المشهور بالنبوغ في العلم نفسِه، ينظر إلىٰ **أبي بكر** نظرة الأستاذ الأعلم..

لم يسجد **أبو بكر** لصنم قط..

يتذكر حينما كان في صباه أخذه **أبو قحافة**، فانطلق به إلىٰ مخدع فيه الأصنام، فقال له:

ـ هذه آلهتُك الشمُّ العوالي.

وذهب، تاركًا **أبا بكر** الصبي وحده.. وسط التماثيل الحجرية اللامعة..

فدنا من أحدها..

ـ إني جائع فأطعمني!

فلم يُجِب التمثال.. ولم يلمع..

ـ إني عارٍ فاكسني..

استمر الصمت.. فحمل الصبي صخرةً وألقاها علىٰ وجه الصنم.. فتكسَّر وخرَّ التمثال..

دون صراخ.. ودون ألم..

ومن يومها أدرك أنه لن يعبد هذه الأشياء..

وأنه لم يُخْلَقْ لكي يكون حجرًا بشريًّا..

لم يكن **أبو بكر** يشرب الخمر قط..

وقد سأل أحدُ الناس **أبا بكر**:

ـ هل شربت الخمر من قبل؟

ـ لا ولن أفعل.

ـ ولِمَ؟

ـ أصون عِرْضِي، وأحفظ مروءتي، فإنَّ مَن شرب الخمر كان مضيِّعًا لعِرضه ومروءته.

عندما كان في الشام باغتته رؤيا عظيمة.. عظمتُها في النور الذي أحاط به فيها..

نوراً لم يرَ مثله.. ويكاد يقسم أنه لا يوجد في الكون له مثيل..

قص رؤياه علىٰ **بَحِيرَىٰ الراهب**، فقال له الراهب:

ـ من أين أنت؟

ـ من مكة

ـ من أيِّها ؟

ـ من قريش

ـ فأي شيء أنت ؟

ـ تاجر

ـ إن صدَق اللهُ رؤياك ، فإنه يَبْعث بنبيٍّ من قومك ، تكون وزيرَه في حياته ، وخليفته بعد موته

فأَسرَّ **أبو بكر** ذلك في نفسه!

لكنه شعر بيقينٍ أن قول الراهب حقٌّ.. إنه منذ صباه.. وتحديدًا منذ حطم الصنم، ينتظر نورًا آتيًا يهتدي به.. نورًا يكون هو صديقه.. مصدِّقه.. تابعه..

وماذا يكون النورُ إلا نبيًّا من السماء؟

لم يقصَّ رؤياه على أصدق أصدقائه **محمد بن عبد الله**.. لكنّ **أبا بكر** أحسّ أن لـ**محمدٍ** صلةً ما بهذه الرؤيا..

محمدٌ هو الصادق الأمين.. صاحب البشاشة والدماثة.. والعزلة في غار حراء..

كان **أبو بكر** ينتظر ما سيأتي من هذا الإنسان العظيم، صاحب العزلة.. كان يشعر أن النور سينبثق من ذلك الغار من حول **محمد** حالَ خروجه الكبير منه..

كان **أبو بكر** يعلم كل شيءٍ عن **محمد** منذ صباه..

حين كان **محمد** الصبي يلعب مع أقرانه.. وأتىٰ نحوهم رجلٌ مهيب لم يره أحد من قبل.. ولن يراه أحد من بعد..

ارتجف الصبية وابتعدوا قليلاً إلا **محمد**.. وقف ينظر إلىٰ الرجل بثبات الكبار..

وأمام أعين الصبية الخائفة المرتعدة.. مدَّ الرجل يده.. وشقَّ صدر **محمد**.. ومد يده داخل الشق وأخرج قلب **محمد**.. ببطء.. بنعومة.. وبلا قطرة دم!

انطلق الصبية متناثرين مسلِّمين أنفسهم للجري المرعوب.. أخبر بعضُهم مرضعةَ **محمد** أن ابنها قد قتلَه رجلٌ مهيب!

أما هذا الأخير فقد استخرج من قلب **محمد** عَلَقةً، وقال لـ**محمد**:

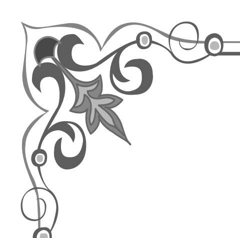
ـ هذا حظُّ الشيطان منك.

ثم أحضر طستًا من الذهب وغسل فيه قلب **محمد** بماء زمزم.. ثم بهدوء أعاد القلب إلىٰ مكانه، وأغلق صدر **محمد**..

لم يعلم أحدٌ أن هذا الرجل لم يكن سوىٰ **جبريل**..

وكانت تلك الحادثة بداية النور الذي لازم **محمداً** بعد ذلك.. والذي استشعر به **أبو بكر**.. واستشعرت به عمته **صفية** أيضًا..

عمته التي تُماثِلُه في العمر، لكنها تنظر إليه نظرة إجلال واحترام..



القسم الثاني

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ
بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ
سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ
وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ
فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ
ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم
مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾

[سورة الفتح].



١٢ ـ نور الرسالة

تحققت النبوءة.. وشعّ النور من **محمدٍ** وحول **محمد** ﷺ..

جاءه **جبريلُ** بالرسالة.. وكان عليه أن يدعوَ إلىٰ دين الله سرًّا في بادئ الأمر..

كان الحق في الخفاء.. والظُّلمُ في العلن..

النور في الجوف.. والظلام في الظاهر..

وعندما تنامىٰ خبر دعوة **محمد** ﷺ الجديدة إلىٰ مسامع **أبي بكر** أسرع إلىٰ صديقه **محمد** ﷺ:

ـ أحق ما تقول قريش يا **محمد**؟

فقال **محمد** ﷺ:

ـ بلىٰ، إنِّي رسول الله ونبيه، بعثني لأبلغ رسالته وأدعوك إلىٰ الله بالحق، فوالله إنه لَلْحَقّ، أدعوك يا **أبا بكر** إلىٰ الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالاة علىٰ طاعته.

وقرأ عليه القرآنَ، فأسلم وكفر بالأصنام.. أسلم كأول المسلمين في تاريخ الدعوة.. أول المصدقين بنبوة **محمد** ﷺ..

وقد فرح الرسول ﷺ بإسلام صديقه الصدِّيق، وخليله ورفيقه المقرب..

لقد كان باكورة نجاح الدعوة الإسلامية وهي لا تزال في مهدها!

ـ ما دعوتُ أحدًا إلىٰ الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردُّدٌ ونظر ، إلا **أبا بكر** ما عَكَمَ ـ تلبَّث ـ عنه حين ذكرتُه ، ولا تردد فيه . . إنَّ الله بعثني إليكم فقلتُم: كذبتُ ، وقال **أبو بكر**: صدَق ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟ . . فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟

بعد إسلام **أبي بكر** علم أنه أصبح هو الآخر مكلَّفًا بتبليغ دعوة صاحبه ﷺ . . ، فبدأ يدعو إلىٰ الإسلام مَن وثِق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه ، فأسلم علىٰ يديه: **الزبير بن العوام** ، و**عثمان بن عفان** ، و**طلحة بن عبيد الله** ، و**سعد بن أبي وقاص** ، و**عبد الرحمن بن عوف** . .

ثم جاء بـ**عثمان بن مظعون** ، و**أبي عبيدة بن الجراح** ، و**أبي سلمة بن عبد الأسد** ، و**الأرقم بن أبي الأرقم** فأسلموا . .

كما دعا **أبو بكر** أسرته وعائلته ، فأسلمت بناته **أسماء** و**عائشة** ، وابنه **عبد الله** ، وزوجته **أم رومان** ، وخادمه **عامر بن فهيرة** .

حين نزل الأمرُ بالصلاة ؛ كانت فقط صلاتين:

ركعتين بالصباح وركعتين بالعشيّ . . كان **محمد** ﷺ وأصحابه يَسْتَخْفُون

بصلاتيهم عن أعين الناس.. جبابرة **قريش**.. وأصنام **قريش**..

الأصنام التي ظلت تُقَدّم لها القرابين في عَلَنٍ أثيم.. وصلاتا المسلمين تُقامان في سِرّ..

كان السر في لقاء المسلمين برسولهم ﷺ..

السر في التعليم.. في القرآن.. في هذا النَّفْس الجديد للحياة..

وكان الشيطان يبتسم.. ترتسم ابتسامته العابثة على الوجوه الحجرية العمياء..

عندما صار عدد المسلمين ثلاثين، بدأوا يلتقون مع رسولهم ﷺ في مكان أمين، من أجل تلقِّي الإرشاد والتعليم.

فكانت دار **الأرقم بن أبي الأرقم** هي موطن اللقاء السريّ.. وبقوا فيها شهرًا..

وعندما بلغوا ما يقارب أربعين رجلاً وامرأةً، حانت اللحظة التي انتظرها المسلمون طويلًا..

نزل الوحي يكلِّف الرسول ﷺ بإعلان الدعوة والجهر بها..

بعد ثلاثِ سنوات من السرِّ، نزلت الآية الكريمة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]..

هنا جمع الرسولُ ﷺ أهلَه من بني عبد المطلب.. جميعَهم.. لم يستثنِ أحدًا..

واختصَّ بعضَهم بالذكر.. ومنهم عمته الجليلة.. **صفية بنت عبد المطلب**..

فقال:

ـ يا **فاطمة بنت محمد**، يا **صفية بنت عبد المطلب**، يا **بني عبد المطلب**، لا أملك لكم من الله شيئًا، سَلُوني من مالي ما شئتم.

صعِد رسول الله ﷺ علىٰ الصّفا فقال:

ـ يا معشر **قريش**!

فقالت **قريش**:

ـ مالك يا محمد؟

ـ أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونني؟

قالوا:

ـ نعم، أنت عندنا غير متَّهم، وما جربنا عليك كذبًا قطّ.

ـ فإنّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ، يا بني عبد المطلب! يا بني عبد مناف! يا بني زهرة! إنّ الله أمرني أن أُنذر عشيرتي الأقربين، وإنّي لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبًا، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله.

فقال **أبو لهب** وهو عمٌّ للرسول ﷺ:

ـ تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟

فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

اجتمع أصحاب النبي **محمد** ﷺ وهو معهم.. نظر **أبو بكر** حواليه فإذا بهم ثمانية وثلاثون رجلًا.. هنا شعر **أبو بكر** بضرورة أن يظهر المسلمون ويدعوا إلى الإسلام بشكل أكثر علانية..

ألحَّ **أبو بكر** على النبي في الظهور، فقال ﷺ:

ـ يا **أبا بكر** إنَّا قليل..

فلم يزل **أبو بكر** يُلِحُّ حتى ظهر الرسول ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام **أبو بكر** في الناس خطيبًا والرسول جالس، فكان أولَ خطيبٍ دعا إلى الإسلام..

ثار المشركون على **أبي بكر** وعلى المسلمين، فضربوه في نواحي المسجد ضربًا شديداً، ودنا منه **عتبة بن ربيعة** فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين على وجهه، فسال دمُه حتى ما يُعرف وجهُه من أنفه!

وجاءت بنو تيم يدافعون عن **أبي بكر**، فأجْلَت المشركين عن **أبي بكر**، وحملت **بنو تيم أبا بكر** في ثوبٍ حتى أدخلوه منزله، ولا يشُكُّون في موته!!

كانت آلام جسده عاتية ، والدماء تفور من وجهه وأنفه . . لكنه كان متألمًا أكثر من أجل رسول الله ﷺ . . لم يكن يتمنىٰ أن يكون هذا هو جزاء ظهور الدعوة . . وشعر بالأسف والأسىٰ من أجل الرسول **صلىٰ لله عليه وسلم** . .

وقد قال **بنو تيم**:

ـ والله لئن مات **أبو بكر** لنقتلنَّ **عتبة بن ربيعة**!!

فرجعوا إلىٰ **أبي بكر** ، فجعل **أبو قحافة والد أبي بكر** و**بنو تيم** يكلمون **أبا بكر** حتىٰ أجاب ، فتكلم آخر النهار وجعل يقول:

ـ ما فعل رسول الله ؟

وقالوا لأمه **أم الخير**:

ـ انظري أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه . .

فقالت:

ـ والله ما لي علم بصاحبك

ـ اذهبي إلىٰ **أم جميل بنت الخطاب** فاسأليها عنه . .

فخرجت حتىٰ جاءت **أم جميل وكانت تخفي إسلامها** ، فقالت لها **أم الخير**:

ـ إن **أبا بكر** يسألك عن **محمد بن عبد الله** ؟

ـ ما أعرف **أبا بكر** ولا **محمد بن عبد الله** ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلىٰ ابنك ؟

فمضت معها حتىٰ وجدت **أبا بكر** مصابًا بشدة ، فصاحت **أم جميل** وقالت :

ـ والله إنَّ قومًا نالوا منك لأهلُ فسق وكفر ، إنني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم ! !

قال :

ـ فما فعل رسول الله ؟

ـ هذه أمك تسمع !

ـ فلا شيء عليكِ منها

ـ سالمٌ صالحٌ .

ـ أين هو ؟

ـ في دار **الأرقم**

ـ فإن لله عليَّ ألَّا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله !

فجعلته **أم جميل** ينتظر حتىٰ ينصرف الناس عنه ، ثم خرجتا به ـ هي وأمه ـ يتكئ عليهما ، حتىٰ أدخلتاه علىٰ الرسول ﷺ ، فأكب عليه الرسولُ ﷺ فقبَّله ، وأكبَّ عليه المسلمون ، ورق له الرسولُ **محمدٌ** ﷺ رقةً شديدةً ، فقال **أبو بكر** :

ـ بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها وأنت مباركٌ فادعها إلىٰ الله، وادعُ اللهَ لها عسىٰ الله أن يستنقذها بك من النار.

فدعا لها النبي **محمد** ودعاها إلىٰ الله؛ فأسْلَمَتْ.

لقد أسلمت **صفية**.. هكذا بيُسْر وسُهولة، وبلا أدنىٰ جدال.. ولم يكن ذلك صعبًا علىٰ نفسها، ولا علىٰ من حولها..

نعم ليس ما قاله ابن أخيها المبارك أمرًا عاديًّا أو معتادًا، خاصة عند العرب...

قد يكون غريبًا علىٰ بعض العقول التي لا تتأمل.. إلا أنه ليس بغريب علىٰ القلوب الحيّة.. إنّ **محمّدًا** ﷺ لا يكذب.. عامة الناس تكذب... ولكنه لا يكذب.. إنه لا يكذب علىٰ الناس، فكيف يكذب علىٰ رب الناس؟! إنه والكذب ضدان لا يجتمعان ولا يلتقيان..

وكذا أسلم ابنُها **الزبير** علىٰ حداثة سِنِّه..

كان **نوفل** عمّ **الزبير** يُعذِّبه ليرجع عن الإسلام..

وكانت أم **الزبير صفيةُ** قادرة علىٰ منع العذاب ولو بالكلام أو طلب الجوار، إلا أنها ـ كعادتها في شدة تربيته ـ أرادت أن تدرب ابنها الفارس

الذي أرادته ، علىٰ تحمُّل الأذىٰ في سبيل الحق الذي يؤمن به . .

وكان **الزبير** عند حُسْن ظنِّ والدته ، فواجه العذابَ بقوةِ عزيمتِه ، وكان يقول :

ـ لا أكفر أبدًا .

فلما رأىٰ عمُّه أنه لا يترك الإسلام ؛ تركه . .

ثارت شائعةٌ بأن النبي **محمد** ﷺ أُخِذ بأعلىٰ مكة !

هنا ثارت دماء الفروسية في عروق **الزبير** فخرج وبيده سيفُه ، فمن رآه ؛ عَجِبَ ، وقال : الغلام معه السيف !! ، حيث كان **الزبير** لا يزال في الثانية عشرة من عمره . .

حتىٰ أتىٰ النبي ﷺ فقال :

ـ ما لك يا **زبير** ؟

ـ أُخبِرت أنك أُخِذتَ .

ـ فكنتَ صانعًا ماذا ؟

ـ كنت أضرب به من أخذك .

فدعا له ﷺ ولسيفه .

لهذا قيل إن **الزبير** أول من سلَّ سيفًا في الإسلام . . وكان السيف بسبب

أمه **صفية** التي نشَّأَتْه فارسًا منذ صغره.. واشتدت عليه في التربية وأغلظت..

يومها اطمأنت **صفية** إلىٰ أن نبتتها قد بدأت تثمر، ويبدو صلاحُها، وهي لا تزال خضراء.. وابتسمت للقَدَر في لحظة نادرة.. ها قد بدأتْ تَجْنِي ما زرعتْ..

لما اشتد الأذىٰ علىٰ المسلمين بمكة؛ أَذِنَ النبيُّ ﷺ لأصحابه بالخروج والهجرة إلىٰ **الحبشة** فقال:

ـ لو خرجتم إلىٰ أرض **الحبشة**، فإنَّ بها مَلِكًا لا يُظْلَم عنده أحدٌ، وهي أرضُ صِدْق، حتىٰ يجعلَ الله لكم فرجًا مما أنتم فيه.

فخرج **الزبير** مهاجرًا إلىٰ **الحبشة**، وكان عددهم أحد عشر رجلًا وأربع نسوة..

وقد شجعته والدتُه **صفيةُ** علىٰ خَوْض هذه الهجرة رغم حداثة سنه.. وتحملت بُعْدَه عنها، حيث كان إيمان **صفية** بدين **محمد** ﷺ راسخًا قويًّا رغم جِدَّتِه.. كانت تثق في حدسها الذي أنبأها منذ الصغر بأن الله واحد لا شريك له.. وأن الأصنام لا يمكن أن تكون إلهًا أو شركاء لله.. وكانت تثق في صدق وأمانة ابن أخيها **محمد** ﷺ بلا حدود..

وخرج المسلمون من **مكة** حتىٰ وصلوا ساحلَ بحر القُلزم، وكان ذلك

في رجب من العام الخامس بعد البعثة .

وعندما وصل المهاجرون إلىٰ **الحبشة** استقبلهم **النجاشي** استقبالًا حسنًا ، حيث علم أنهم مستضعفون في قومهم ، وأن لديهم دينًا يؤمنون به ، ولا يبغون لأحد أذىٰ ، فحماهم واحتواهم .



١٣ ـ العذاب

أظهرت **قريش** العداءَ الشديدَ للرسول ﷺ ولمن تبعوه، وللدين الجديد.. فاختطف أكابرُهم المؤمنين.. قيدوهم إلىٰ جذوع النخل..

جلدوهم.. كووهم بالنار.. أذاقوهم من سموم العذاب ألوانًا.. ومات منهم من مات.. إلا أن أحدهم لم يتراجع عن دينه..

كان نور الإسلام قد اعتمر قلوبهم فسيطر عليها.. وأحال أجسادهم إلىٰ طاقات نورانية حية.. لا تقهرها سياط الكافرين.. ولا تهديداتهم.. إنّ النار لا تحرق النور..

كان هذا مصير من يكتشف سادة **قريش** أنه يخفي إسلامه..

إلا أن سبعة في ذلك الوقت قد جهروا بإسلامهم من البداية..

رسول **الله** ﷺ.. و**أبو بكر**، و**بلال** و**خباب** و**صهيب** و**عمار** و**سمية**.

فأما رسول **الله** ﷺ و**أبو بكر** فلم ينالهما تعذيبٌ بسبب قومهما.. وأما الآخرون فأُلبسوا أدرع الحديد ثم صُهروا في الشمس..

ورغم أن قومَه ونسبه منعوا **قريش** من تعذيبه، إلا أنه سرعان ما نال الرسول ﷺ نصيباً من هذا التنكيل..

يومها كان رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة.. وكان **عقبة بن أبي مُعيط** من أشد الناس كُرْهًا للرسول ﷺ ورسالته.. كان غاضبًا لأجل معبوداته الحجرية، ويرىٰ أن عيونها الحجرية تحثه علىٰ الانتقام.. حتىٰ بات لا ينام من نِير الرغبة المحمومة في الانتقام من محمد ﷺ..

أتىٰ **عقبة** من خلف الرسول ﷺ وهو يصلي.. فأخذ بمنكبه ثم لوىٰ ثوب الرسول ﷺ علىٰ عنقه.. وأخذ يخنق الرسول ﷺ.. بقوة.. بعنف.. بغلٍّ.. كان **عقبة** يدرك أن بين يديه منبع الرسالة الوليدة.. وكان عليه أن يزهق روح هذا المنبع.. حتىٰ وهو يشعر أن يده هو ـ الخانقة ـ تكاد تنخنق من خنقها الذي تخنقه.. وأن روحه هو تكاد أن تتسرب من بين أصابعه الغليظة المطبقة علىٰ الثوب علىٰ وجه الرسول ﷺ..

من خلف **عقبة** يدٌ قوية جذبته من مَنْكِبه حتىٰ كاد أن ينخلع.. ودفعته اليد بعيدًا عن رسول الله ﷺ..

إنه **أبو بكر**، ومَنْ غيرُه؟.. الصَّدِيق الصِّدِّيق للرسول ﷺ.. ليقول:

ـ أتقتلون رجلًا أن يقولَ: ربي اللهُ، وقد جاءكم بالبيّنات من ربّكم!..

هرَّ **عقبة** جاريًا يلهث، وقد شعر بأن كل الأحجار التي سجد لها في حياته تجثم فوق صدره الآن.. وتخنقه بضراوة..

نهض الرسول ﷺ قائلًا:

ـ اللهم عليك بـ**عمرو بن هشام**، و**عتبة بن ربيعة**، و**شيبة بن ربيعة**،

والوليد بن عتبة، و**أمية بن خلف**، و**عقبة بن أبي معيط**، و**عمارة بن الوليد**..

تضاعف أذىٰ المشركين للرسول **محمد** ﷺ وأصحابه مع انتشار الدعوة الإسلامية في **مكة**، وقد تجلَّت في معاملة المستضعفين من المسلمين وخاصة **بلال بن رباح**!!

لم يكن له ظهرٌ يسنده، ولا عشيرةٌ تحميه، ولا سيوفٌ تذود عنه.. فعندما علم سيده **أمية بن خلف** بأنه أسلم، تحدث إليه:

ـ أحقًّا اتبعت الدين الجديد يا **بلال**؟!

ـ بلىٰ يا سيدي. إنه الدين الحق الذي يدعو لعبادة الله الواحد.. ويأمر بالعدل والحق.

رمقه **أمية** بنظرة عميقة ماكرة.. كان يحاول أن يخترق ما تحت بشرته السمراء الداكنة، لينفذ إلىٰ قَلْبِ قلبه.. هذه الدعوة الجديدة التي هي أشد من السِّحر علىٰ العبيد والفقراء خاصة.. وكأنهم وجدوا فيها المنفذ والملاذ لهم.. هي دعوة ضد الأسياد بلا شك.. الأسياد الذين هو منهم ومن أشرفهم.. لابد أن يُعِيدَ **بلالًا** إلىٰ سابق عهده.. لن يهنأ العبد الأسود بحريةٍ كأسياده.. لذا لم يجد **أمية** بأسًا من بعض الإغراء.. فالعبد قد يأتي بشيءٍ من اللين والفتات الذي يلقىٰ إليه أرضاً فيلتقمه ويرضىٰ.. هكذا قد يعامل السيدُ عبيدَه.. و**أمية** سيفعل..

ـ **بلال**.. تعلم أنك عبدي المفضَّل.. كم أغدقت عليك من العطايا.. وأنا علىٰ استعداد لأن أزيد.. تعرف أنت الجارية الحسناء.. سأنكحك إياها.. ستنال المزيد من الكساء الجديد.. ستصير سيداً لعبيدي يأتمرون بأمرك.. وأنا أعلم أنك مطيع لسيدك صاحبِ الأفضال عليك.. وأوقن من عودتك سريعًا إلىٰ عهد الآباء والأجداد.. لأنني لم أعهدك خائناً للعهد قط.

ـ سيدي.. إن الإسلام يدعو إلىٰ الخير في الدنيا والآخرة.. ويجعلني أرضىٰ بقليلي وأصبر وأحتسب.. إن متاع الدنيا زائل.. والآخرة خير وأبقىٰ..

ـ من استحفظك مثل هذا الحديث العجيب؟.. لا.. ليس **بلال** عبدي الأثير هو من يتحدث.. لقد غزا عقلَك عقلٌ آخر.. إنه عقل **محمد**.. إن اتباع **محمد** كما ترىٰ لا يهنؤون بعيشٍ.. إنهم يُهانون.. يُعذَّبون.. وإنّ قلبي لا يطاوعني أن أعاملك بالمثل..

ـ لن أعود عن الحق بعدما وجدت فيه ضالتي.. سامحني سيدي.. إنه إيماني.. وعلىٰ الله توكلت وإليه المصير.

ابتسم **أمية** وعبث قليلًا بشعر لحيته:

ـ جلدك الأسمر لامعٌ.. لا أحب أن ينطفئ بعد الكيِّ باللهب.. أو أن يظهر بياضه بعد ذوبان ظاهره.. لا أظن رقتك تتحمل آلام الأحجار.. والنار.. أعرف أن الحسناء أرق علىٰ جلدك.. والحرير

أنعم.. ستعود إلىٰ عهد الأجداد يا **بلال**..

ـ لا يا سيدي..

اتسعت ابتسامة **أمية**.. ضرب ساق **بلال** بقدمه، فخر **بلال** أرضًا متألمًا، ووضع **أمية** نعله علىٰ وجه **بلال**، قائلاً بهدوء مثير:

ـ واللات والعزىٰ لتلعقنَّ حذائي، ولتستسيغن ترابه.. ذرة ذرة.. وسيصرخ جسدك من العذاب بلا مجيب.. وبعدما كنت عبدي ستصير عبدًا للمصير الخائب الذي اخترته لنفسك وأسلمت إليه حياتَك!

وأخرجه إلىٰ شمس الظهيرة في الصحراء بعد أن منع عنه الطعامَ والشراب يومًا وليلة، ثم ألقاه علىٰ ظهره فوق الرمال المحرقة الملتهبة.. انغرست في جسده أنيابُ الرمال فأَدْمَتْه وآلمته..

ثم أمر **أمية** غلمانَه فحملوا صخرةً عظيمة وضعوها فوق صدر **بلال** وهو مقيَّدُ اليدين، ثم قال له:

ـ لا تزال هكذا حتىٰ تموتَ أو تكفرَ بـ**محمد** وتعبدَ اللات والعزىٰ!!

ـ أَحَدٌ أَحَدٌ..

وبقي **أمية بن خلف** مدَّةً وهو يعذب **بلالًا** بتلك الطريقة البشعة، تعلوه ابتسامة باردة.. وحينما تئنّ الصخرةُ فوق صدر **بلال** يبدلونها بصخرة جديدة لا تئنّ!..

فقصد **أبو بكر** موقعَ التعذيب ، وفاوضَ **أمية بن خلف** وقال له :

ـ ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟ حتىٰ متىٰ ؟

ـ أنت أفسدتَه فأَنْقِذْه ممَّا ترىٰ .

ـ أفعل ، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوىٰ علىٰ دينك ، أعطيكه به .

ـ قد قبلت .

ـ هو لك .

فأعطاه **بو بكر** غلامَه ذلك ، وأخذ **بلالًا** فأعتقه .

واستمر **أبو بكر** في شراء العبيد والإماء والمملوكين من المسلمين والمسلمات وعِتْقهم .



١٤ ـ أبو جهل

بمجرد ظهور الإسلام انقلبت حكمة وحلم **أبي الحكم** إلى النقيض!

لم يكن عقل **أبي الحكم** يستوعب ما يحدث!

كيف لليتيم الذي كان يرعى الغنمَ أن يبشِّر بدين.. وأن يصير له أتباع، وإن قلُّوا!

أين هيبة سادات **قريش**؟.. أين هيبته هو؟!!

لم يفتأ لَمَعانُ آلهة الحجارة في عيني **أبي الحكم** يشتعل.. لا يزال يتسمَّع لهم في داخله أصواتاً لا تبلغ مسامعَ أحد غيره!..

بات يغضب ويسبُّ كلما جاءت أخبارٌ عن **محمد** ﷺ ومن اتبعوه ممن أسموا أنفسَهم بالمسلمين!

مسلمين!!!!!

ولمن يسلمون أنفسَهم؟.. يعرف أنهم يقولون إنهم يسلمون **لله**!

ولكنّ **أبا الحكم** يعرف **اللات** و**العزة** و**مناة** وأمثالهم.. صحيحٌ أنه يعرف الله أيضًا، ولكنه يودّ عبادة ما تراه عيناه وتدركه حواسه الغليظة..!!

لذا بدأ يرفع عقيرته بالبغض لـ**محمد** ﷺ وأتباعه..

ولا عجب بالنسبة له كثيرًا في أمر **محمد** ﷺ.. فهو ابن أخٍ لـ**صفية**.. التي يبغضها لبغضها لآلهة الحجارة.. **صفية** التي تجرأت على حجارته المقدسة في الماضي... لقد **محمد** مثلها كارهًا لآلهة ودين أجداده.. كلاهما صُبَّا من قالب واحد.. قالب سيقبضه **أبو الحكم** بكلتا يديه يومًا كما يتمنى..

بدأ يتمنى باستمرار الانتقامَ من المسلمين.. بل وفكر في قتل **محمد** ﷺ..!!

لذا سماه عمُّه **الوليد بن المغيرة أبا جهل** وذلك لسُرعة غضبه، حيث الجهل في لغة العرب ضد الحِلم وهو العفو عند المقدرة..

في جلسة جمعت **عمرَ بن الخطاب** و**أبا جهل** و**شيبة بن ربيعة**، قال **أبو جهل**:

ـ يا معشر **قريش**! إنّ **محمداً** قد شتم آلهتكم وسفَّه أحلامكم وزعم أن من مضي من آبائكم يتهافتون في النار، ألا ومَن قتل **محمداً** فله عليَّ مائة ناقة حمراء وسوداء وألف أوقية من فضة!

قال **شيبة**:

ـ إن قوم **محمد** ونسبه يمنعوننا عنه!

ـ ويحكم!.. أيمنعنا نسَبٌ عمَّن انشقَّ عنَّا وعن ديننا!

ـ الحرب عند العرب داء.. للأعداء قاهرة.. وما بين القبيلة الواحدة عارٌ وسُمّ.. قتل **محمد** سيشق الصف وينزع المودة!

ـ يا معشر قريش، إن **محمدًا** قد أبى إلا ما ترون من عَيْبِ ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسنَّ له غدًا بحَجَرٍ ما أطيق حملَه، فإذا سجد في صلاته فَضَخْتُ به رأسَه، فأَسْلِمُوني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم!!

ـ والله لا نسلِمُك لشيءٍ أبدًا، فامضِ لما تريد.

كان النبي ﷺ في المسجد فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [سورة غافر: الآيات ١ ـ ٣].

وكان **الوليد بن المغيرة** يسمع قراءتَه ففطن له رسول الله وأعاد الآية..

أحس **الوليد** أن لهذا الكلام وقْعًا مختلفًا.. ليس هو بكلام بشري ولا جني.. إنه.. إنه.. شيءٌ لا يمكن وصفه!

عمق ومعنىٰ ومبنىٰ.. قوة.. ولين..

لم يدرِ **الوليد** أيَّ خَدَرٍ أصاب بدنَه!!.. لم يدرِ متىٰ وكيف ولماذا انطلق حتىٰ أتىٰ مجلسَ قومه فقال:

ـ والله لقد سمعت من **محمدٍ** آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إنَّ له لحلاوةً وإن عليه لطَلَاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمُغْدِق، وإنه يعلو وما يعلىٰ عليه!!

ثم انصرف إلىٰ منزله فقالت **قريش**:

ـ صَبَأ والله **الوليد**، وهو ريحانة **قريش**، والله لتَصْبَأنَّ **قريش** كلهم!!

فقال **أبو جهل**:

ـ أنا أَكْفِيكُمُوه..

فانطلق فقعد إلىٰ جنب **الوليد** حزينًا، فقال له **الوليد**:

ـ ما لي أراك حزينًا يا ابن أخي؟

ـ وما يمنعني أن أحزنَ؟ وهذه **قريش** يجمعون لك نفقةً يعينونك علىٰ كبر سنك ويزعمون أنك زيَّنت كلامَ **محمد**، وإنك تدخل علىٰ **ابن أبي كبشة** و**ابن قحافة** لتنال من فَضْلِ طعامهم!!

فغضب **الوليد** وقال:

ـ ألم تعلم **قريش** أنِّي من أكثرها مالًا وولدًا؟ وهل شبع **محمد** وأصحابُه ليكون لهم فَضْلٌ؟!

ثم قام مع **أبي جهل** حتّىٰ أتىٰ مجلسَ قومه فقال لهم:

ـ تزعمون أنَّ **محمدًا** مجنون ، فهل رأيتموه يحنق قطّ ؟

قالوا:

ـ اللهمَّ لا . .

ـ تزعمون أنَّه كاهنٌ فهل رأيتموه تكهَّن قطٌّ ؟

ـ اللهمَّ لا . .

ـ تزعمون أنه كذَّاب ، فهل جرَّبتم عليه شيئًا من الكذب ؟

ـ لا . . . . . . فما هو ؟!!!

فتفكَّر في نفسه ثم نظر وعبس فقال:

ـ ما هو إلا ساحرٌ ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فهو ساحر ، وما يقوله سِحْرٌ يُؤثر!!!

كان الإيمان برسالة **محمد** ﷺ لا يزال بعيدًا عن قلوب وعقول كثيرة . . خاصة أمثال **الوليد بن المغيرة** . . فهو مُشابه لحال **أبي جهل** . . كلاهما داهيةٌ في تفكيره . . وكلاهما يعلم أن **محمدًا** ﷺ لا يكذب .

لكنّ كليهما أيضًا يخشىٰ علىٰ السلطة والنفوذ . . . والبقاء . . بقائهما الذي رأياه رهينًا بـ**محمد** ﷺ ورسالته .

لذا أشكل علىٰ نفس **الوليد** انبهاره بالكلام الذي يتلوه **محمد** ﷺ والذي يسميه بالقرآن . . فبحث لنفسه عن طوق نجاة يغشي عينيه عن الحقيقة التي غضَّ بصره عنها . . لابد من وجود فكرة أخرىٰ غير الإقرار بنبوة

محمد ﷺ ودينه الجديد.. لذا بعدما أمعن في تفكيره، توصل إلىٰ القول بأن **محمدًا** ﷺ ساحرٌ!!.. فهو الحل الوحيد الذي يحفظ له شيئًا من تصالحه مع ذاته.. وفكره.. وسلطانه!

لمَّا أصبح **أبو جهل**، أخذ حجرًا كما وصفَ، ثم جلس لرسول **الله** ﷺ ينتظره..

كان **أبو جهل** يعلم أنّ **محمدًا** ﷺ يصلِّىٰ بين الركن اليماني والحجر الأسود، ويجعل الكعبةَ بينه وبين الشام..

رأىٰ **محمدًا** ﷺ أخيراً قد قام لصلاته.. وكان **أبو جهل** مع حَجَرِه الضخم يتربص له في رُكْن قريب متوارٍ، يترقب لحظة سجود **محمد** ﷺ..

فلما سجد **محمد** ﷺ احتمل **أبو جهل** الحجَرَ، ثم أقبل نحوه حتىٰ إذا دنا منه...........

ما هذا؟... لم يلحق أن يفكِّر، بل وجد نفسَه يترك الحجرَ يسقط، ويفر جريًا طائرًا إلىٰ المجهول!!!!!

رآه رجالُ قريش، يعدو ويلهث، فقالوا له:

ـ ما لك يا أبا الحكم؟

ـ قمتُ إليه لأفعل به ما قلتُ لكم البارحة، فلما دنوتُ منه؛ عرَضَ

لي دُونَه فَحْلٌ من الإبل ، لا والله ما رأيتُ مِثْلَ هامته ، ولا مثل قصرته ، ولا أنيابه ، لفحل قط ، فَهَمَّ بي أن يأكلني!!

لن ينسىٰ **أبو جهل** ما رأىٰ ما حَيِيَ!!.. ذلك الفحل الضخم الذي انشق عنه العدم.. الأسود الذي غطىٰ أفقه وسوَّد دنياه.. مكشرًا عن أنيابه رافعًا مخالبَه ، ورافعًا عقيرته بصياح هادر.. إنه الرعب والموت ممتزجان في كائنٍ لا قِبَلَ له به!

من أين جاء؟.. وكيف كان؟... هل هو حارس لـ**محمد**؟.. أم أنه آية من آيات سحره علىٰ قول **الوليد**؟!! لم يعرف..!

كل ما عرفه وأيقنه ، هو أن **محمدًا** ﷺ لن يقتل!

كان **الأخنس بن شريق** قائد **بني زهرة** من الحائرين في أمر **محمد** ﷺ.. لا يدري كُنْهَ دعوته.. حيث لم يكن يعرفه أو تعامل معه قبل هذه الدعوة.. كان يرىٰ البغضاء تحيط بالرجل ومن اتبعوه ولا يدري كيف يحكم في هذا الأمر!

هداه تفكيرُه إلىٰ اللجوء إلىٰ واحد من سادات **قريش** وواحد من أعلاهم حكمةً **أو هكذا ظن.. أبي جهل** ذاته!

لما اختلىٰ بـ**أبي جهل** سأله قائلًا:

ـ أترىٰ **محمدًا** يكذب؟

فقال **أبو جهل**:

ـ ما كذب قط! وكنَّا نسميه الأمين، ولكن إذا كان في **بني هاشم** السقاية والرفادة والمشورة، ثم تكون فيهم النبوة؛ فأي شيء لـ**بني مخزوم**؟!!.

هنا فهم **الأخنس** أن الأمر لا يعدو كونه حربَ سلطة وسيادة.. وكان هو والكثيرون من **قريش** قد فهموا ذلك.. وعلىٰ رأسهم **ابو جهل** بكل ما يعتوره من غل..

إنهم لا يكذبون **محمداً** ﷺ..

إنهم ـ فقط ـ بآيات الله يجحدون.

لم ولن يعرف اليأس طريقًا إلىٰ قلب **أبي جهل**.. لابد أن يقتل **محمداً**..

ذهب **أبو جهل** إلىٰ حيث **محمدٌ** ﷺ مرة أخرىٰ، وأخذ يسبه بشتائم بذيئة.. واستفزه أنّ **محمداً** ﷺ ظل صامتاً.. هنا حمل **أبو جهل** حجرًا.. ولم يمعن النظر أمامه حتىٰ لا يرىٰ فحلًا ضخمًا مرة أخرىٰ.. لن يمنعه عن **محمد** شيءٌ هذه المرة ولو اجتمعت وحوش الأرض جميعُها أمامَه في تلك اللحظة!!

لم يمعن **أبو جهل** النظر وقذف بالحجر إلىٰ حيث يجلس **محمد** ﷺ.. وأصاب الحجر رأس **محمد** ﷺ وأسال دمه..

وعاد **أبو جهل** إلىٰ مجلس رجال قريش في قمة الفرح والنشوة.. وصاح بهم:

ـ لقد شققتُ رأس **محمد**.. ورأيت دماءه تحت نور الشمس.. سيموت.. أوقن أنه سيموت.. ولئن لم يمت فلن تقومَ له قائمة بعدُ لأنه لن يجرؤ علىٰ مواجهتي بما يدندن به لأتباعه.. اليوم احتفال.. اليوم احتفاااال..



١٥ ـ سيفا الإسلام

تلك الأَمَةُ التي شهدت واقعةَ حَجَرِ **أبي جهل** ورأس **محمد** ﷺ التي شُجَّت.. لم تكن علىٰ دين **محمد** ﷺ ولكنها شهدت واقعة يفتري فيها ذو قوة وبأس علىٰ رجل مستضعف.. فرقَّ قلبها.. إنها مسكينة وتشعر بقلوب المساكين.. فماذا تفعل؟

مهلًا.. هي تعلم أن لديه قريبًا ذا بأس شديد.. عمه **حمزة بن عبد المطلب**.. فارس فرسان **قريش**.. القوي الشديد..

ذهبت الأَمَةُ إلىٰ حيث مجلس **حمزة** ورَوَتْ له ما حدث لابن أخيه..

ثارت دماء **حمزة**.. نعم هو لا يدين بما يدعو إليه **محمد** ﷺ.. لكنه ابن أخيه.. ولا يمكن لفارس الفرسان أن يرضىٰ بإيذاء ابن أخيه..

انطلق الفارس **حمزة** إلىٰ حيث مجلس **أبي جهل** مع القرشيين..

وعندما وصل إليه وقف أمامه ورفع قوسه دون تردد أو ارتياب وضربه به علىٰ رأسه ضربة قوية، شجّ منها رأسه وسال دمه أيضًا..

وشهق **أبو جهل** وجحظت عيناه وقد غطاهما دمُ رأسِه ناظرًا إلىٰ **حمزة** بارتجافة هادرة.. بينما هدر صوت **حمزة** في آذان الجميع:

ـ أتشتُمه وأنا علىٰ دينه أقول ما يقول؟ رُدَّ ذلك عليَّ إن استطعتَ!

فصاح رجال من **قريش** مصعوقين:

ـ ما تراك يا **حمزة** إلا قد صبأت!!

ـ وما يمنعني منه وقد استبان لي منه ذلك، وأنا أشهد أنه رسولُ الله، وأن الذي يقول حق، فوالله لا أنزع، فامنعوني إن كنتم صادقين!

فقال **أبو جهل** من وسط ارتجافاته:

ـ **دعوا أبا عمارة، فإني والله لقد سببتُ ابنَ أخيه سبًّا قبيحًا!**

رجع **حمزة** إلىٰ بيته، وأخذت أفكاره تتصارع بداخل رأسه.. ما هذا الذي نطقه لسانه؟!!.. هل سيتبع دينَ ابن أخيه حقًّا!!.. هو لم يفكر من قبل في هذا الأمر..

وماذا عن نفوذه وسلطانه في **قريش**.. هل يترك ذلك لدين جديد، أيًّا كان من يدعو إليه.. ثم إنه لم يستسغ فكرة أن يكون هو الفارس المغوار تابعًا لابن أخيه!!..

هنا أتاه الشيطان يُزْجِي نارَ أفكاره المتلاطمة موسوسًا له:

ـ أنت سيد قريش، اتبعت هذا الصابئ وتركت دينَ آبائك، الموتُ كان خيرًا لك مما صنعتَ..

نفض **حمزة** رأسه طاردًا ما عَلِق بأفكاره من شيطان:

ـ ما صنعتُ اللهمَّ إن كان رشدًا فاجعل تصديقَه في قلبي، وإلا فاجعل لي ممَّا وقعتُ فيه مخرجًا!

لم يكن **حمزة** يملك التراجع عمَّا نطقه أمام جمع من القرشيين، علىٰ رأسهم مبغضه **أبي جهل**.. ولم يكن ـ في ذات الوقت ـ يملك تطويع عقله وقلبه لاستساغة فكرة لم يعرفها بعدُ..

هدتْه فطرتُه السليمة أن يذهب إلىٰ ابن أخيه ويناقش معه الأمر.. لابد أن يفهم ما يدعو إليه **محمد** ﷺ قبل أن يتخذ قراره الأخير.

عند **محمد** ﷺ أتىٰ **حمزة** وقال له ناظرًا إلىٰ عينيه وقلبه:

ـ يا ابنَ أخي، إني قد وقعتُ في أمرٍ لا أعرف المخرجَ منه، لا أدري ما هو، أرُشد هو أم غَيّ شديد؟ فحدثني حديثًا فقد اشتهيتُ يا ابن أخي أن تحدثني.

فأقبل الرسولُ **محمدٌ** ﷺ فذكّره ووعّظه وخوّفه وبشّره، فألقىٰ الله تعالىٰ في نفسه الإيمانَ بما قال النبي ﷺ، فقال:

ـ أشهد أنك الصادقُ، شهادة الصدق، فأظْهِرْ يا ابنَ أخي دينَك، فوالله ما أُحبُّ أنَّ لي ما أظلته السماءُ وأني علىٰ ديني الأول.

لم يكن في غلاظة قلبه أحدٌ في **قريش**.. **عمر بن الخطاب**.. ومن غَيْرُه!

فارس مغوار عتيد.. ازدادت غلاظته عند انبثاق الدين الجديد.. لم يترك

لنفسه برهة من تفكير.. لابد أن ينتهيَ الأمرُ ويبقىٰ ما كان علىٰ ما كان..

هكذا فكر وقرر..

حين علم أن جاريةً له قد اتبعت الدين الجديد سقاها العذابَ قطرةً قطرة.. خشيَ الناس من الجهر بإسلامهم من بطشه..!

وهذا راعي غنمٍ آخر.. لم يمر وقت طويل علىٰ تلقيه كلامًا عذبًا من راعي غنم سابقٍ أطيب وأشرف.. إنه **محمد بن عبد الله** الصادق الأمين.. دعاه **محمد** ﷺ إلىٰ الإيمان بالله الواحد القهار ونبذ عبادة الحجارة.. ولقد بدأ راعي الغنم هذا يُحِسُّ بالطمأنينة تتسلل إلىٰ قلب قلبه..

إلا أن ظلًّا ضخمًا أمامه قد غطَّاه وغطىٰ دنياه بسواد عظيم.. إنه ظل **عمر بن الخطاب** الذي يقف بصرامته المعتادة.. ويهدر صوته:

ـ بماذا حدثك **محمد** اليومَ يا رجل؟

ارتعدت كلُّ ذرة في كيان راعي الغنم، ولم تطاوعه شفتاه علىٰ النطق.. فجذبه **عمر** من ثيابه:

ـ لا تفكر فيما قاله **محمد**.. لا تحدِّثْ به نفسَك.. لا تحلم به.. إن في طاعته الهلاكَ علىٰ يد **عمر**.. أتدري ما هو الهلاكُ علىٰ يد **عمر**؟!

وترك الراعي يسقط أرضًا:

ـ الهلاك علىٰ يد **عمر** هو أن تستنشق الموت ولا تنثرُه.. أن تنقطع حياتك بالألم.. انسَ ما قيل لك.. واثبت علىٰ دين أجدادك..!

وحين استدار **عمر** للانصراف وبدأ ظله العظيم ينحسر عن ملامح جسد الراعي، ظلَّ الأخيرُ يبكي ويرتجف.. إن اتباع **محمد** يعني الهلاك علىٰ يد **عمر**.. هو يعلم أن **ابن الخطاب** يتتبع من يدعوهم **محمد**.. يرهبهم فيرتدعون.. وهذا المسكن لن يكون مختلفًا عنهم!

بعد أن أمر النبي **محمد** ﷺ المسلمين في **مكة** بالهجرة إلىٰ **الحبشة** أجفل **عمر**.. سيتشتت أبناء **قريش**.. ستنهار القبيلة العريقة.. سيندثر السلطان الكبير..

هنا تفتق ذهن **ابن الخطاب** عن الفكرة.. لابد أن يموت **محمد** ﷺ حتىٰ لو كان رأس **عمر** هو الثمن..

قادتْه قدماه مع عقله وقلبه إلىٰ حيث قومه.. وتكلم بقوته:

ـ حسنًا.. لو كان **بنو هاشم** هم من يحولون بيننا وبين **محمد**.. سأقتل **محمداً**.. وسأقدم لهم نفسي لقاءَ ذلك!

بُهِت الناسُ لما يقول...

إنه يفدي نظامَ القبيلة بروحه.. يفدي الأصنامَ العتيدة بنفسِه..

كان عقل **عمر** في حالة من التخبُّط والحيرة.. بدأ الناس في قومه يتحلقون حول **محمد** ﷺ وما يدعو إليه.. والحياةُ قصيرةٌ، و**عمر** فيها من قادة **قريش**.. و**عمر** يأبىٰ أن يفقد السلطة والجاه..

وفي الوقت نفسِه يوقن الجميع ـ حتىٰ ألد أعدائه ـ أن **محمدًا** ﷺ صادقًا أمينًا.. لذا صار تكذيبه أشق من حمل جبال **مكة**.. صار تكذيبه شاقًّا حتىٰ علىٰ عقل وقلب **عمر**..

إن الرجل قد عاش بينهم أربعين عامًا دون أن يطلب جاهًا أو سلطة.. حتىٰ في دعوته لا يطلب جاهًا أو سلطة.. لكن الاستجابة إليها ستؤدي إلىٰ فقد **عمر** للجاه والسلطة..

فليكن **محمدٌ** صادقًا.. ولتكن السلطة باقية.. وهي لن تبقىٰ فقط بتكذيبه.. بل لابد من قتله.. الآن وليس غدًا.. وليكن ما يكون من **بني هاشم**..

خاصة وقد وقعت الإهانة بـ**أبي الحكم** مِن قِبَل عمِّ **محمد** ﷺ الفارس المقتدر **حمزة بن عبد المطلب**.. لقد أهان **حمزة أبا الحكم** وسط أقرانه بسبب مساس الأخير بابن أخي **حمزة**: **محمد**.. هناك إذن من ينتصر لـ**محمد** صراحةً وإن لم يكن علىٰ دينه..

إن **أبا الحكم** هو خالُ **عمر**.. إذن هي إهانة شخصية لك يا **عمر**.. لابد أن ترد الإهانة بالسيف ولا سواه.. حُسِمَ الأمرُ إذن!

سيصمُّ **عمر** أذنيه عن خواطر قلبه المتلاطمة.. وسيفسح المجال لدقات

عقله التواقة لاستمرار السلطة والقيادة..

سيحمل سيفَه إلىٰ حيث **محمد** ﷺ..

في الطريق لقي **عمرُ نُعَيمَ بن عبد الله العدوي القرشي** وكان من المسلمين الذين أخفوا إسلامهم.. ورأىٰ **نعيم** النيران في عيني **عمر**.. فقال له:

ـ أين تريدُ يا **عمر**؟

ـ أريد **محمداً** هذا الصابي الذي فرَّق أمر **قريش**، وسفَّه أحلامها، وعاب دينَها، وسبَّ آلهتها، فأقتله.

ـ والله لقد غرَّتْكَ نفسُك يا **عمر**، أترىٰ بني عبد مناف تاركيك تمشي علىٰ الأرض وقد قتلت **محمداً**؟ أفلا ترجع إلىٰ أهل بيتك فتقيم أمرَهم؟ فإن ابن عمك **سعيد بن زيد بن عمرو**، وأختك **فاطمة بنت الخطاب** قد والله أسلما وتابعا **محمداً** علىٰ دينه؛ فعليك بهما!

فانطلق مسرعًا غاضبًا إليهما، فوجد **خباب بن الأرت** يجلس معهما يعلمهما القرآن، فضرب **سعيداً** فطار بعيداً، ولطم أخته فشقَّ وجهها وسقطت من يدها الصحيفة التي كانت تحملها.. وسقط وراءها دمها القاني، وأحاط بالصحيفة دون أن يلوثها..

همَّ **عمر** بالتقاط الصحيفة ، إلا أن **فاطمة** أسرعت على الرغم من دمها وألمها لتختطف الصحيفة من على الأرض:

ـ لا . . لن تمسها قبل أن تتوضأ . . أو اقتلني إن شئت!

كاد **عمر** أن يصرَّ على أخذ الصحيفة ، إلا أن لهجة أخته الصارمة ألجمته . . فتوقف برهة . . ووجد نفسه ـ لدهشته ـ يذهب إلى حيث توضأ بسرعة . . ولا يدري لماذا استجاب . . ربما أحس أنه مقبلٌ على كلامٍ له قدسيته وجلاله . .

والتقط الصحيفةَ من يد أخته ، وبدأ يقرأ بصوت أدهشه ارتجافته ، وإن كانت ضئيلة:

ـ ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ .

فوجئ **عمر** بالارتجافة تمتد إلى جسده بأكمله ، وخفق قلبه بقوة ، ووجد نفسه يقول:

ـ ما هذا بكلام البشر!!

هنا بَسِمَت **فاطمة** وقد جف دمها السائل:

ـ إنه كلام الله الواحد الذي لا شريك له .

تمعَّن **عمر** فيها بنظره، ثم عاد بنظره إلىٰ الصحيفة.. يشعر أنَّ الله حدثه.. ويرىٰ أمام عينيه آلهة الحجارة أصنامًا تذوب ترابًا تذروه الرياح.. يرىٰ الدنيا ضئيلة، ووحدانية الإله الواحد عزةً تطمس ذلَّ السجود للحجر الأصم الأعمىٰ.. ثم نطقها:

ـ أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن **محمدًا** رسول الله.

دقَّ باب بيت **محمد** ﷺ، وسمعوا صوت الطارق، وهو الذي لا يختلف علىٰ معرفته اثنين.. إنه صوتٌ يزدان بالقوة والثبات.. صوتٌ خلق للقوة ولبَثِّ الرعب في قلوب أعدائه.. وعلىٰ الرغم من ذلك قام رجل من أصحاب الرسولِ، فنظر من خَلَلِ الباب لعله يصدق أذنيه، فرجع إلىٰ الرسولِ ﷺ وهو فَزِع، فقال:

ـ يا رسول الله، هذا **عمر بن الخطاب** متوشحاً السيف!!

فقال **حمزة بن عبد المطلب**:

ـ فَأْذَنْ له، فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًّا قتلناه بسيفه.

توتر الجالسون جميعًا.. فهم موقنون أن **عمر** البطَّاش لن يأتي إلا بشرٍّ.. وأن **حمزة** القوي المسلم لن يصمت.. بالتأكيد ستدور معركة تسيل لها الدماء حتىٰ الآذانِ..

قال الرسولُ ﷺ:

ـ ائذن له.

فأَذِنَ له الرجل، ونهض إليه الرسولُ ﷺ حتىٰ لقيه في الحُجرة، وقال:

ـ ما جاء بك يا **ابن الخطاب**؟ فوالله ما أرىٰ أن تنتهي حتىٰ يُنْزِلَ الله بك قارعة.

ـ يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله.

فكبَّر الرسولُ ﷺ تكبيرةً عَرف منها أهل البيت من أصحاب الرسولِ أن **عمر** قد أسلم.

وقع إسلامُ **عمر بن الخطاب** و**حمزة بن عبد المطلب** وقعًا صاعقًا في نفوس مشركي **قريش**، علاوة علىٰ ازدياد انتشار الإسلام في القبائل..

أحسّ طغاة **قريش** أن البساط يُسحب رويدًا من تحت أقدامهم.. لو استمر الحال هكذا سيزول ما لهم من سلطان وهيمنة علىٰ هذه الأرض.. إنهم لن يَدَعُوا لـ**محمد** وأصحابه السلطة لمجرد أنه نبي!

اجتمع القرشيون.. واتخذوا قرارَهم.. لابد أن يقتلوا **محمدًا**..

وكان عليهم أن يتواصلوا مع **بني هاشم** الذين رفضوا أن يسيل دمُ **محمد** ﷺ تحت أي ذريعة، وقرروا أن يُسبغوا عليه حمايتهم..

هنا قررت **قريش** أن تفرض الحصارَ التام علىٰ **بني هاشم**..

لن يناكحوهم.. لن يبايعوهم.. لن يخالطوهم ولن يجالسوهم.. لابد أن يسلموا **محمداً** ﷺ للقتل..

وصِيغ الحصارُ المرير في كتاب علّقوه في جوف الكعبة.. وحالفوا بني كنانة علىٰ هذا الأمر..

حاصروا **بني هاشم** في شعب **أبي طالب**.. قطعوا عنهم الموارد جميعها..

ضاقت السبل وتغلَّقت في وجه **بني هاشم** حتىٰ باتوا يأكلون أوراق الشجر!!

أقاموا في الشعب ثلاث سنين تحت سياج الحصار..

سعىٰ خمسةٌ من رؤساء قريش في نقض الصحيفة وإنهاء الحصار..

وكان الرسول ﷺ يعلم أن صحيفتهم الجائرة تأبىٰ أن تستمرّ.. يعلم أن الأرضة قد أكلت ما كان فيها إلا ذكرَ الله، وهي عبارة "باسمك اللهم"!

وخرج **أبو طالب** قائلًا لقريش:

ـ إنّ ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني قطّ أنّ الله قد سلّط علىٰ صحيفتكم الأرضة فلحست كل ما كان فيها من جَوْر أو ظلم أو

قطيعة رحم ، وبقي فيها كل ما ذكر به الله ، فإن كان ابن أخي صادقًا نزعتم عن سوء رأيكم ، وان كان كاذبًا دفعته إليكم فقتلتموه أو استحييتموه .

فقالوا:

ـ قد أنصفتَنا .

فأحضروا الصحيفةَ . . وفتحوها . . وصُعِقوا لِمَا رأوا . . فقد تلاشت جميع الكلمات إلا "باسمك اللهم" .

فقال **أبو طالب**:

ـ علام نُحْبَسُ ونُحْصَر وقد بان الأمر ؟

ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة فقال:

ـ اللهم انصرنا ممَّن ظلمنا وقطع أرحامنا واستحلَّ ما يحرُم عليه منا .

وعند ذلك قام **المطعم بن عدي** إلىٰ الصحيفة فمزَّقها ، وبهذا تم نقض الصحيفة . .

وسُمح لـ**بني هاشم** و**بني المطلب** بالعودة إلىٰ مساكنهم في السنة العاشرة للبعثة .



١٦ ـ الطائف

مات **أبو طالب**!

هكذا استمرّ حال النبي ﷺ.. فبعد موت أبويه وهو لا يزال رضيعًا لم يكن يتبقىٰ له من سَنَدٍ إلا عمه **أبو طالب**.. إلا أن إرادة الله فوق كل شيءٍ دومًا.. إرادة الله قدَّرت أن يواجه الرسول ﷺ بطشَ قومه بمفرده.. والرسالة التي يحملها فوق كاهله..

نعم وُجِد من يؤازره إلا أنَّ عمه كان هو السند الأشد، بما لـ**أبي طالب** من شأنٍ لدىٰ بني قومه..

عمته **صفية** كانت حاضرةً كسند له دائمًا.. إلا أن القرشيين لم يكونوا يقيمون وزنًا لامرأة.. وخاصة إذا خالفت ما يرون ويريدون... أيًّا كانت.. ولو كانت كريمةَ النسب والأصل مثل **صفية** ابنة سيد **قريش عبد المطلب**..

اشتد الأذىٰ بأتباع الرسول ﷺ مِن قِبَل طغاة **قريش**.. حيث توفىٰ مانعُهم **أبو طالب**..

هنا اتخذ الرسول ﷺ قرارَه.. لابد من الخروج إلىٰ **الطائف**.. لابد من توسيع نطاق الدعوة مادام غالبية قومه يصرون علىٰ الكفر والإيذاء..



خرج الرسول ﷺ مشيًا على الأقدام ومعه **زيد بن حارثة**، وذلك في السنة العاشرة من البعثة..

أقام بالطائف عشرة أيام..

ودعا الرسول ﷺ أشرافَ **الطائف** جميعَهم..

لكن رد فعل هؤلاء الأشراف كان صادمًا.. رافضًا.. بأقسى الكلام والتصرفات..

من الجلي أن أشراف العرب في أي مكان يضعون دائمًا سلطاتهم ونفوذهم نصب أعينهم.. إن دينًا جديدًا لكفيل بأن يسلب منهم هذه السلطات والنفوذ..

الإنكار والكفر هو دين هؤلاء.. عبودية أصنام الحجارة تمنحهم النفوذ المنشود..

الحجارة لا تتكلم.. لا تأمر ولا تنهي.. لا تدعو لدين ما.. ليس لها رسول يجب أن يطاع!

لقد وصل الأمرُ إلى أن سفهاء **الطائف** تتبعوا الرسول ﷺ فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى إن رجليه كانتا تدميان!

وحاول **زيد بن حارثة** أن يَقِيَه بنفسه حتى جُرح في رأسه..

وفي النهاية عاد النبي ﷺ إلى مكة..



١٧ ـ القبائل

كانت **صفية** علىٰ علمٍ تامٍّ بما يمرُّ به الرسول ﷺ.. كانت تعلم كم يعاني من الأذىٰ والرفض والإنكار الذي يواجهه.. من قومِه.. ثم من أهل **الطائف**..

كانت تتمنىٰ أن يأمر الله رسولَه بالجهاد دفاعًا وحفاظًا علىٰ دينه..

وكانت تتمنىٰ ـ أكثر ـ حين يأتي هذا الأمر من الله، أن يسمح لها بالقتال مع المقاتلين.. هي امرأة.. لكنها توقن أنها أقوىٰ وأشجع من رجال كثيرين..

كانت قناعة **صفية** أنَّ الحق بحاجةٍ إلىٰ قوة تحميه.. قوة تؤصِّله وتجعل الكافر يخشاه ولا يعذب أتباعَ الحق أو يقتلهم..

لكن لحظة الأمر الإلهي لم تحِن بعد.. وحين تحين ستكون **صفية** علىٰ أهبة استعدادها.. لحمل السيف!

لم يكن أمام الرسول ﷺ إزاء انغلاق السبل أمامه لتمديد دعواه، إلا المزيد من التوسع.. ينبغي إذن نشر الدعوة لدىٰ جميع قبائل العرب الأخرىٰ.. قبيلة قبيلة..

أخذ النبي ﷺ يتبع الحجاج في منىٰ، ويسأل عن القبائل قبيلة قبيلة،

ويسأل عن منازلهم ويأتي إليهم في أسواق المواسم..

عكاظ، ومجنَّة، وذي المجاز.. كان ﷺ يقول لهم:

ـ ألا رجل يعرض عليَّ قومَه، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي.

وكان أهل القبائل يقولون:

ـ أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك!

فلم يجبْه أحد!

بدا إذن أن طريق الدعوة بالغ العثرة.. وأن القبائل الأخرىٰ أيضًا تحذو حذو **قريش** من حيث الرفض والإنكار..



١٨ ـ العقبة

وسط الظلام ينبثقُ نورٌ . .

لم يتسلل أيُّ قدرٍ من اليأس إلىٰ نفس الرسول ﷺ . .

كان ينتظر شرارةَ نورٍ . . ويثِقُ أنَّ ربَّه سيعمم هذه الشرارة في الأرجاء . .

يحتاج **صلىٰ الله وسلم** إلىٰ فئة قليلة تقتنع بالدعوة في البداية . . أي يكون لديها دافع للاقتناع . . ثم ستنتشر الدعوة . .

بعد رفض جميع القبائل لدعوة الدين الجديد ، لقي النبيُّ ﷺ ستة أشخاص من الخَزْرَج من **يثرب** . .

أسعد بن زرارة ، وعوف **بن الحارث** ، ورافع **بن مالك** ، و**قُطبَة بن عامر بن حديدة** ، و**عُقبة بن عامر بن نابي** ، و**جابر بن عبد الله** . .

فقال لهم النبي ﷺ :

ـ من أنتم ؟

قالوا :

ـ نفرٌ من الخَزْرَج .

قال :

ـ أمِن موالي يهود ؟

ـ نعم!

ـ أفلا تجلسون أكلِّمكم؟

ـ بلىٰ.

فجلسوا معه فدعاهم إلىٰ الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال بعضهم لبعض:

ـ يا قوم، تعلموا والله أنه للنبيُّ الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنَّكم إليه!

لقد كان اليهود يتحدثون دائمًا عن نبيّ آخر الزمان.. الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة.. كانوا يتصورون أنه سيكون نصيرًا لليهود.. وكانوا يهدِّدون **الخزرج** بأن نبي آخر الزمان سوف يقتل **الخزرج**!

لم يصدق **الخزرج** أنه سيأتي نبيٌّ بالفعل إلا عندما استمعوا إلىٰ هذا الحديث من النبي ﷺ.. وقد كان ﷺ بالنسبة لهم غريبًا.. وصفًا وكلامًا.. إلا أن كلامه لقىٰ في نفوسهم راحة وقبولًا.. خصوصاً حين ذكرهم بكلام اليهود لهم.. فقد وجدو ما قاله النبي ﷺ لا يوافق كل ما قاله اليهود..

فنبي آخر الزمان ها هو يدعو **الخزرج** أنفسَهم للدين الجديد.. نبي آخر الزمان ليس بقاتل، بل هو رحمة.. وليس سيفاً مسلطًا في يد اليهود..

يعلم **الخزرج** براعةَ اليهود في قلب الحقائق.. وعبقريتهم في الخيانة.. والكذب..

هنا أسلم أولئك النفر من **الخزرج**..

وعُدَّ هذا نصرًا أولًا لدعوة الرسول ﷺ.. لم تفشل إذن دعوته للقبائل.. وأسلم لأول مرة، نفرٌ من قبيلة غير قبيلته **قريش**.. إنها شرارة النور التي انتظرها ورجاها..

وكان علىٰ يقينٍ في الله أنَّ النورَ سيبدأ في الانتشار..

عندما عاد هؤلاءِ الستةُ من **الخزرج** إلىٰ **المدينة** أخبروا قومَهم عن **محمد** ﷺ:

ـ إنه بحقٍّ نبيُّ آخر الزمان.. نعم هو من أخبرت عنه اليهود.. ولكن ليس كما قالوا تمامًا.. هذا النبيُّ أُرسِل للناس كافة وليس فقط لليهود.. هذا الرجل ليس بقاتلٍ ولا شرير.. إننا نحسبه علىٰ خير إذ ليس له غَرَضٌ من دعوته، لاسيما وقد آذاه قومُه، وأنكروه، وجحدوه؛ خوفًا علىٰ سلطانهم.. جحدوه ولم يكذبوه.. ونحن نرىٰ أن نصدقه.

هنا اقتنع أهلُ المدينة بالدين الجديد.. وأسلم الكثيرون، فلم يعد بيت فيهم يخلو من ذكرٍ طيّبٍ لـ**محمد** عليه الصلاة والسلام.. وهكذا سُمُّوا بالأنصار.

في العام التالي التقىٰ اثنا عشر رجلًا بالرسول ﷺ بالعقبة في منىٰ،

فبايعوه.. كانوا عشرة من الخزرج هم: **أسعد بن زرارة**، **عوف بن الحارث**، **معاذ بن الحارث**، **ذكوان بن عبد قيس**، **عبادة بن الصامت**، **قطبة بن عامر بن حديدة**، **عقبة بن عامر السلمي**، **العباس بن عبادة**، **يزيد بن ثعلبة**، **رافع بن مالك**، واثنين من الأوس وهما: **عويم بن ساعدة**، **مالك بن التيهان**.

كان نص البيعة:

«بَايَعَنَا رسولُ الله لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ الأُولىٰ علىٰ أَن لا نُشْرِكَ بِالله شيئًا، وَلا نَسرِقَ، وَلا نزني، ولا نقتل أولادنا، وَلا نَأْتِيهِ بِبُهْتَانٍ نفتريهِ بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروفٍ، فإنْ وفَّيْتُمْ فلكم الجنَّة، وإن غشيتم من ذلك شيئا، فأُخِذْتُم بِحَدِّهِ في الدنيا فهو كفارةٌ له، وإن سُتِرْتُمْ عليه إلىٰ يوم القيامة، فأمركم إلىٰ الله، إن شاء عَذَّبَ وإن شاء غفر»..

وكانت **بيعة العقبة الأولىٰ**..

أثلجت تلك البيعةُ قلبَ **صفية**.. وعدَّتْها أولَ نصر لابن أخيها الحبيب المجتهد.. أيقنت أن **محمدًا** ﷺ قد انتصر بقوته الناعمة هذه المرة.. بصدقه ودعوته.. دون أن يؤذن له من الله بحمل سيف أو رمح..

لكن **صفية** كانت موقنة بأنَّ وقتَ السيف آتٍ آتٍ.. وأن القوة الناعمة وحدها لن تكفي لنصرة الحق.. خاصة وهي تدرك ما ينطوي تحت السرائر من مكر ودهاء طغاة **قريش** الكارهين المُنكرين.. إنها ترىٰ

أعينَهم الناظرةَ بتوجُّس لثبات محمد ﷺ.. تلمس بعينيها أناملهم التي تداعب نصال سيوفهم التي لا تزال في أغمادها.. إلا أنها سرعان ما ستُسُلّ.. وحين يحدث هذا، لا مناص من أن تلاقي السيوفَ سيوفٌ.. لن يحدث أن ينتصر القلب الأعزل على سيفٍ قطَّاع..

ستأتي لحظة القتال، وستكون **صفية** عند الميعاد.. عند العهد.. أم.. وطبيبة.. وربما مقاتلة! من يدري؟!

بعث النبيُّ ﷺ **مُصعبَ بن عمير** مع مَنْ بايعوه من **يثرب**، يُقرئهم القرآنَ ويعلمهم الإسلامَ.. فأقام في بيت **أسعد بن زرارة** يدعو الناس إلى الإسلام، ويصلي بهم. فأسلم على يديه **سعد بن عبادة**..

هنا أحس سادةُ **يثرب** بالخطر الذي أحس به سادة **قريش**..

في الأفق دعوةٌ لا يدرك السادةُ مداها وغرضَها.. يندفع الناس ورائها منبهرين.. دعوة يقودها رجل لا يعرفونه، أرسل رسولًا لا يعرفونه.. كان لابد من زجر هذا الرسول، لكي يرتدع من أرسله..

وكان من ضمن السادة **سعد بن معاذ** و**أسيد بن حضير** من بني عبد الأشهل..

قرر **سعد** أن يرسل **أسيدًا** إلى **مصعب**.. كان الهدف هو زجر **مصعب** وإخافته ليعود أدراجَه إلى حيث أتى..

ذهب **أسيد** إلى **مصعب** وقال له:

ـ ما جاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءَنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له **مصعب**:

ـ أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرًا قَبِلْتَه، وإن كرِهْتَه كُفَّ عنك ما تكره؟

ـ أنصفتَ..

فجلس فكلَّمه **مصعب** بالإسلام وقرأ عليه القرآن..

شعر **أسيد** بكلام الله يتسلل إلىٰ قلبه وعقله.. ما هذا بقول البشر!

إن له وَقْعًا ومعنىٰ، ليس له مثيل..

وقال **أسيد**:

ـ ما أحسنَ هذا وأجملَه، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قال له **مصعب**:

ـ تغتسل فتطهُر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي..

فأسلم ثم قال:

ـ إن ورائي رجلًا إن اتبعكم لم يتخلَّفْ عنه أحدٌ من قومه وسأرسله إليكم الآن، **سعد بن معاذ**.

ثم ذهب **سعد بن معاذ** إلىٰ **مصعب** فأسلم أيضًا.

لما أسلم **سعد** وقف علىٰ قومه قائلًا:

ـ يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا:

ـ سيدنا فضلًا، وأيمَنُنَا نقيبةً.

ـ فإن كلامكم عليَّ حرامٌ، رجالكم ونساؤكم، حتىٰ تؤمنوا بالله ورسوله..

فانتشر الإسلام في **يثرب**، حتىٰ لم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

اجتمع الْقَوْمَ من أهل **يثرب** من أجلِ بَيْعَةِ جديدة لرسول **الله** ﷺ.. بيعة أكبر وأعظم.. حين رجع **مصعب بن عمير** إلىٰ مكة، خرج ثلاثة وسبعون رجلًا وامرأتان من الأنصار في موسم الحج إلىٰ الرسول ﷺ..

حينها وقف **العباس بن عبادة بن نَضلة الأنصاري** أمامهم قَائلًا:

ـ يا معشر الخزرج، هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجلَ؟

قَالُوا:

ـ نعم.

ـ إنكم تبايعونه علىٰ حَرْب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهِكَتْ أموالكُم مُصيبةً، وأشرافُكم قتْلًا؛ أَسْلَمْتموه؛ فمِنَ الآن، فهو والله إن فعلتم خزيُ الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه علىٰ نُهْكَة الأموال، وقتل الأشراف؛ فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة؟

قالوا:

ـ فإنا نأخذه علىٰ مصيبة الأموال، وقتل الأشراف.

ثم قالوا:

ـ فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وَفَيْنَا بذلك؟

قال لهم النبي ﷺ: الجنة.

قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه.

فقال لهم النبي ﷺ:

ـ تبايعوني علىٰ السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنَّفقة في العُسْر واليُسْر، علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومةَ لائم، وعلىٰ أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمتُ عليكم ممَّا تمنعون منه أنفسَكم وأزواجَكم وأبناءكم، ولكم الجنة..

وقد سُميت ببيعة الحرب ؛ لأن كان فيها البيعة علىٰ القتال ، والذي لم يكن شرطًا في البيعة الأولىٰ . .

فبايعوه رجلًا رجلًا بدءًا من **أسعد بن زرارة** وهو أصغرهم سنًّا . .

وكان الرِّجال تصفق علىٰ يدي النبي ﷺ بالبيعة . .

أما المرأتان اللتان حضرتا البيعة مع زوجيهما فقال لهما النبي ﷺ :

ـ قد بايعتُكما ، إني لا أصافحُ النساءَ .

ثم قال للقوم :

ـ أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا يكونون علىٰ قومهم بما فيهم .

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

وقال الرسول ﷺ للنقباء :

ـ أنتم علىٰ قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسىٰ بن مريم ، وأنا كفيل علىٰ قومي .

علمت **قريش** بالبيعة . . وأحسوا بالخطر الجسيم يتزايد . .

ربما لم يعطوا لخطر دعوة **محمد** قدرها الصحيح . . لقد بدأ يعلو شأن ابن قومهم الأمي اليتيم . . ولأول مرة صار له عددٌ لا بأس به من الأتباع ومِن خارج قومه !! . . لابد إذن من التحرك السريع لوأد هذه الدعوة في مهدها . .

هنا ذهب زعماء **مكة** إلىٰ أهل **يثرب** للاحتجاج علىٰ البيعة..

فوجئوا بمشركي الخزرج ـ وكانوا لا يعرفون شيئًا عن هذه البيعة ـ ينكرون ذلك..

عاد زعماء **مكة** يعتورهم الشك!..

لكنهم سرعان ما تأكدوا من صحة الخبر.. هنا بدأوا المطاردة الغاشمة..

طاردوا المسلمين المبايعين في كل مكان..

أدركوا **سعد بن عبادة** و**المنذر بن عمرو**..

المنذر استطاع الهروب.. أما **سعد** فأخذوه فربطوا يديه إلىٰ عنقه، ثم أدخلوه **مكة** يضربونه.. وتحمل **سعد** دون أن ينطق بالكفر بما وقر في قلبه.. تحمل بقوة لم يعهدها هو نفسُه في نفسِه من قبل!!

وجاء **جبير بن مطعم** و**الحارث بن حرب بن أمية** فخلَّصا **سعدًا** من أيدي زعماء **مكة**.. حيث كان بينهما وبين **سعد** تجارة وجِوار..

أخيراً ابتسمت **صفية**.. ابتسامة قوة وثقة..

إن **بيعة العقبة الثانية** التي تمت، تنذر بأن الأمر بالقتال آت لا محالة.. لأنها سميت **ببيعة الحرب** لتضمنها احتمالية القتال مع المشركين..

كانت تدرك أن قوة المسلمين العسكرية ستنبع من إيمانهم بالله وبرسوله ﷺ.. وأن فئتهم القليلة ستهزم الفئات الكثيرة بإذن الله..

١٩ ـ الهجرة

كان الاجتماعُ في دار الندوة بين سادات **قريش**.. كان الهدف: الوصول إلىٰ حل حاسم لدعوة **محمد** ﷺ وأتباعها، والتي بدأ انتشارها يتزايد، مما جعل دبيب الخوف يزحف علىٰ قلوب **قريش** لأول مرة..

كان التوجس مسيطرًا عليهم من المساس بدم **محمد**.. فإن علو شأن نسبه وقومه يمنعانهم..

إلا أن **أبا جهل** كان له رأي مختلف:

ـ واللهِ إنّ لي فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا:

ـ وما هو يا **أبا الحكم**؟

ـ أرىٰ أن نأخذ من كل قبيلة فتي شابًّا جليدًا نَسِيبا وَسِيطًا فينا، ثم نعطي كل فتىٰ منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمُه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف علىٰ حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعَقْل، فعقلناه لهم!!

صاحوا جميعاً بنشوةِ انتصارٍ مؤيدين للفكرة..

حين اجتمع فتيانُ القبائل عند دار النبي ﷺ، لم يمسَّهم شكٌّ في أنهم ظافرون برأسه في هذه الليلة.. ومنَّىٰ **أبو جهل** نفسه بالاحتفال غرقًا في خمر النشوة، بالخلاص من هذا الدين الجديد وأتباعه وتهديد بقائه السلطوي..

إلا أنه لم يصدق نفسَه حين روىٰ له الفتيان أنهم حين طال عليهم الانتظار دخلوا إلىٰ الدار فلم يجدوا إلا ابن عمه **عليَّ بن أبي طالب** في فراش **محمد** ﷺ!!.. وقد كانوا موقنين من وجود **محمد** ﷺ بالداخل!!

لم يبلُغ عقل **أبو جهل** كيفية خروج **محمد** ﷺ دون أن يراه متربِّصوه.. ولم يقنعه تفسير "السحر" لهذا الأمر..

كان يعلم أنّ **محمدًا** ﷺ قد خرج للهجرة إلىٰ **يثرب**.. وأن هناك تجمعًا لأتباعه هناك..

رغم كل ذلك لم ييأس **أبو جهل**.. وظل يمنِّي نفسه بالخلاص من **محمد** ﷺ وأتباعه هناك.. في مهجره.. **يثرب!**

كان علىٰ الرسول ﷺ أن يهاجر إلىٰ **يثرب**.. لقد مُهدت الأرض للإسلام وأسلم معظم أهل المدينة بعد بيعة العقبة الثانية خاصة..

لقد آن الأوان لتبدأ مرحلة جديدة لنشر الدعوة أكثر وأكثر بالدفاع عنها بقوة.. مرحلة الجهاد في سبيل الله.

وحين دخلُ الرسول ﷺ مدينة **يثرب** سُميت بمدينة الرسول..

دخل الرسول ﷺ في مشهد مهيب معتليًا ناقته القصواء.. وقد استقبله الأنصار بالفرحة والإنشاد..

اعترضه الأنصار يكلمونه بالنزول عليهم، فقال لهم مشيراً إلىٰ ناقته:

ـ إنّها مأمورةٌ فخلّوا سبيلَها..

حتىٰ انتهت فبركت في مِرْبَدٍ لغلاميْن يتيمين من بني النجار، فأمر ببناء مسجد عليه.. المسجد النبوي..

كانت **صفيّةُ** من أوائل المهاجرين..

تركت وراءها في مكة...... كلَّ شيء...

أطلال ذكرىٰ.. وحجرًا عقيمًا..

وعمرًا ذاهبًا..

كانت تخطو نحو الستين.. ولم تشعر أن عُمْرًا قد مرَّ مثل هذا العمر!!..

حين أبصرت شعرها وقد أضاء معظم أسوده بالبياض.. لم تكترث.. وإن أيقنت أن الباقي قليل..

قيل لها: لِمَ تهاجرين معهم.. وقد دنوتِ من القبر دنوًّا.. واستطال أولادك ليُجَاوزوا قامتك..

إلا أنها لم تكترث!

كانت تسعىٰ وراء النور الذي أضاء بابن أخيها ولابن أخيها.. النور المنبثق من فوق سبع سماوات.. المتشعب من جذع رباني واصل بين السماء والأرض..

كان لها قلب ـ ولا زال ـ لا ينبض بخوف أو بقلق.. فقط ينبض بحماس.. وثقة.. توَّجهما إيمان بالحق.. وللحق.

حين كانت صبية، لم تكن تعتقد في هذه الأصنام، وإنا لما تخيلنَّاها قد حطمت أول صنم، تحطمت معه آخر رجفة أصابت قلبها.. من يومها لم يعرف هذا القلب ارتجافة.. بل كانت تقسو علىٰ نفسها من أجل ما تعتقد فيه..

لقد ضربت ابن قلبها **الزبير** في صباه ضربَ مبغضة ـ فقط ـ ليصير فارسًا مدافعًا عن الحق.. وقد صار..

احتملت الأذىٰ حين كفرت بالأصنام من صغرها ـ فقط ـ لتصل إلىٰ نور السماء الذي أيقنت من مجيئه.. وقد وصلت..

لم تتراجع حين آمنت بما كفروا به ـ فقط ـ لتُعلي الحق وتعلو به.. وقد علا..

إن الصادق الأمين **محمدًا** ﷺ قد صدق وعده لها.. لقد بدأ ينشر نوره في الأرجاء.. ولسوف تعينه **صفية** أكثر من مجرد الدعم المعنوي.. بل

أكثر من مجرد الهجرة كغيرها ممن هاجرن، وإن كانت من أوائلهن..

لسوف تحمل سيفًا بتارًا.. في يوم ما.. في وجه أعداء الله.. وإنها لتشعر به قريبًا..

لن يخط الشيب شيبًا في قلبٍ شابٍّ لا يشيب.. الشيب أضعف من أن يمس قلبَ **صفية**.. هو يستقوي على الشعر برسمه لعلامات الزمن المنصرم.. فقط يرسم.. ولا يغزو قلب **صفية**.. ولن يفعل.

بدأ **محمد** ﷺ يمارس دورَه القيادي.. كان لابد من تنظيم العلاقات بين أهل المدينة جميعهم على اختلاف أطيافهم..

كتب في ذلك كتابًا اصطلح عليه باسم الصحيفة.. استهدف هذا الكتاب توضيحَ التزامات جميع الأطراف داخل المدينة من مهاجرين وأنصار ويهود، وتحديد الحقوق والواجبات، كما نص على تحالف القبائل المختلفة في حال حدوث هجوم على المدينة... وعاهد فيها اليهود ووادَعَهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وقد احتوت الوثيقة ٥٢ بندًا، ٢٥ منها خاصة بأمور المسلمين و٢٧ مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، ولا سيما اليهود وعبدة الأوثان..

وحيث كان ﷺ لا يأمن مكر اليهود.. كان يدرك أنهم طائفة من البشر لا وعد لهم ولا عهد.. وأنهم شوكة مسمومة في ظهر المسلمين.. لذا آثر أن يأمن شرهم مؤقتًا، وهو يوقن أنهم سرعان ما سيغدرون.. لكن حينئذ

سيكون المسلمون علىٰ أهبّة استعدادهم.

في المدينة، شعر الرسول ﷺ أنه لابد أن يكون للدعوة لِسَانٌ، ينطق بالشعر ضد أعداء الإسلام، مثلما يفعل أعداء الإسلام بقرض الشعر ضد المسلمين ورسولهم.. إذ إن القتال كما يكون بالسيف يكون بالكلمة التي قد تكون أحدَّ من أحدِّ سيف!

فقال رسول الله ﷺ للشاعر **حسان بن ثابت**:

ـ اهجُ قريشًا، فإنه أشدُّ عليهم من رَشْقٍ بالنَّبْل.

ـ والذي بعثك بالحقَ! لأفرينَّهم بلساني فرْيَ الأديم..

ـ لا تعجل، فإن **أبا بكر** أعلم **قريش** بأنسابها، وإن لي فيهم نسبًا، حتىٰ يخلِّص لك نسبي.

ـ يا رسول الله، قد خلَّص لي نسبك، والذي بعثك بالحق!! لأسلنَّك منهم كما تُسَلُّ الشعرةُ من العجين..

ـ إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحتَ عن الله ورسوله..

وعندما بدأ **حسان** يهجو الكفار، وأسال دماء كبريائهم بكلامه البتار، كان رسول الله ﷺ يقول:

ـ هجاهم **حسان**، فشَفَىٰ واشْتَفىٰ.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩].

أخيرًا جاء الإِذْنُ بالقتال من فوق سبع سماوات.. فقد آذىٰ مشركو **قريش** المسلمين ورسولَهم، حتىٰ حملوهم علىٰ الهجرة من **مكة** إلىٰ **يثرب**، تاركين أموالهم للمشركين.. لذا كان لابد من القتال لمقاومة رغبة المشركين في الثأر والمطاردة.. ولكي يعوض المسلمون خسائرهم المادية الجسيمة الناتجة عن الهجرة.. ولأن الله تعالىٰ يعلم أن المسلمين الآن في حالة استعداد واستنفار، بعدما التأم شمل المهاجرين والأنصار واستقروا معًا، فجاء الأمر أخيرًا..

كانت أُولىٰ السّرايا، سرية **حمزة بن عبد المطلب** في شهر رمضان في ثلاثين رجلًا من المهاجرين.. **حمزة** شقيق **صفية**..

كانت **صفية** سعيدة بنزول الأمر بالقتال أخيرًا.. وزادت سعادتها لأن قائد أول سرية هو **حمزة**..

خرجت السريةُ يعترضون عِيرًا لقريش فلم تقع حرب.



٢٠ ـ بدر

خرج رسولُ **الله** ﷺ في شهري جمادىٰ الأولىٰ وجمادىٰ الآخرة في السنة الثانية من الهجرة في مئة وخمسين أو مئتين من المهاجرين لاعتراض عير لـ**قريش** ذاهبة من **مكة** إلىٰ **الشام**..

فلما وصل مكاناً يُسمىٰ "ذا العشيرة" وجد العيرَ قد فاتته بأيام... فلما اقترب رجوع العير من **الشام** إلىٰ **مكة**، بعث الرسول ﷺ **طلحة بن عبيد الله** و**سعيد بن زيد** إلىٰ الشَّمال ليقوما باكتشاف خبرها.. وعندما عرفا أن عير **أبي سفيان** ستمرُّ، رجعا إلىٰ الرسول ﷺ وأخبراه بذلك..

كانت هذه العير قافلةً تجارية كبيرة، تحمل أموالاً كثيرة، وسبق أن ذكرنا الأموال التي استولىٰ المشركون عليها من المسلمين بعد هجرتهم إلىٰ **المدينة**..

لذا كان لابد من استرداد الأموال.. وكان لابد من إظهار أن للمسلمين هيبة.. وقوة..

هذا علىٰ الرغم من أنه صلىٰ الله علي وسلم حين خرج لملاقاة هذه العير لم يكن ينتوي قتالًا.. إلا أنّ قدرَ الله أبىٰ إلا أن يحدث غير ما كان ينتويه..

وقال النبي ﷺ لأصحابه:

ـ هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يُنْفِلُكُمُوها.

خرج الرسول ﷺ والمسلمون من المدينة المنورة في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة.

وأرسل الرسول اثنين من أصحابه إلىٰ بدر، وهما **عدي بن الزغباء الجهني** و**بسبس بن عمرو الجهني** طليعةً للتعرُّف علىٰ أخبار القافلة فرجعا إليه بموعد تحرك القافلة ومرورها من جهة المسلمين.

كان هدف المسلمين هو اعتراض القافلة واحتواؤها، لذا لم يكن عددهم هو أقصىٰ ما لديهم من قدرة قتالية.. لم يكن معهم إلا فَرَسان، فرس لـ**الزبير بن العوام**، وفرس لـ**المقداد بن الأسود الكندي**، وكان معهم سبعون بعيرًا..!

ونظراً لقلة عدد البعير مقارنة بعدد المسلمين، فإن المسلمين كانوا يتناوبون ركوب البعير، فكان كل ثلاثة علىٰ بعير.. وكان **أبو لبابة** و**علي بن أبي طالب** زميلَي رسول الله ﷺ..

فقالا:

ـ نحن نمشي عنك.

ـ ما أنتما بأقوىٰ مني، ولا أنا بأغنىٰ عن الأجر منكما.

ودفع الرسولُ ﷺ لواءَ القيادة العامة إلىٰ **مصعب بن عُمير العبدري القرشي**، وكان هذا اللواء أبيض اللون، وقسم جيشه إلىٰ كتيبتين: كتيبة

المهاجرين ، وأعطىٰ عَلَمَها **علي بن أبي طالب** ، وكتيبة الأنصار ، وأعطىٰ علمها **سعدَ بن معاذ** ، وجعل علىٰ قيادة الميمنة **الزبير بن العوام** ، وعلىٰ الميسرة **المقداد بن عمرو** ـ وكانا هما الفارسين الوحيدين في الجيش ـ وجعل علىٰ الساقة **قيس بن أبي صعصعة** ، وظلت القيادة العامة في يده ﷺ . .

وهكذا بدأ يتحقق لـ**صفية** ما أرادت . . فقد أصبح ابنها **الزبير** من قادة جيش المسلمين . . حتىٰ لو كانت فقط كتيبة لملاقاة قافلة تجارية لقريش . .

الزبير الفارس الذي قست هي عليه في تربيته لكي يصبح فارسًا قائدًا ، وليس مجرد فارس عادي . . قائدًا مدافعًا عن الحق . .

بينما كانت **صفية** مع هذه الكتيبة استعدادًا للقيام بالعناية الطبية اللازمة للمجاهدين . . كانت تتولىٰ الطبَّ وعينُها علىٰ السيف اللامع . . لكنها كانت موقنة أن موعدها مع ملامسة مقبض السيف قد اقترب . . وحين يحين اللقاء ستكون مستعدة لحمله ومجاهدة أعداء الله به . .

كان **أبو سفيان** يتلقَّط أخبار المسلمين ويسأل عن تحركاتهم ، بل يتحسس أخبارهم بنفسه . .

لم يكن يدري كيف استطاع **محمد** ﷺ وأصحابه في وقت ليس بالقليل الفرار بدينهم الجديد إلىٰ **يثرب** والتمركز هناك . . بل وإيجاد أنصار قبل

وصولهم، استقبلوهم واحتضنوهم!!

كان ينظر إلىٰ قدميه، ويطأ الأرض بقوة أكثر في مشيته خوفًا من أن يُسحب ما تبقىٰ من بساطٍ من تحتهما.. بساط السلطة.. والرِّفعة.. بساط القوة المالية... والروحية!

كان بغضه يزداد لمن سموا أنفسهم بالمسلمين.. ولقائدهم!

لم يكن يتصور أن ينجح راعي الأغنام الأمي اليتيم في تكوين جماعة.. أو لعلها قبيلة جديدة!!!.. هم منشقون.. وهو ليس بساحر أو مجنون.. يعلم **أبو سفيان** هذا جيدًا.. لكنه ظل ينعت **محمدًا** ﷺ بالساحر أو المجنون لكي يحافظ علىٰ هيبته هو.. وهيبة قومه.

مع إدراك **أبي سفيان** في قرارة نفسِه أن **محمدًا** ﷺ صادق أمين، وليس بساحر أو مجنون أو شاعر، كان يشكل عليه الأمر.. **محمد** صادق أمين.. لكن ما يدعو إليه لا يمكن أن يكون حقًّا.. أو يخشىٰ **أبو سفيان** أن يكون حقًّا!

لم يدع **أبو سفيان** للعقل مجالًا.. لم يحاول أن يتدبر الكلام الذي يجري علىٰ لسان **محمد** الذي يسميه بالقرآن.. كان يُغشي عقله بعصابة سوداء قاتمة.. منيعة.. من صُلب.. وتنظر عيناه إلىٰ ما له وقومه من مال.. وعزة.. واقتدار..

لن يضيعَ كلُّ هذا من أجل **محمد** ومن معه.. لن يصير تابعًا، بعدما اعتاد وأدمن أن يكون سيدًا.. لهذا سيستمر **أبو سفيان** علىٰ فكره.. أو هكذا

ينوي.. سيقاتل **محمدًا** ومن معه دون رحمة..

فليكن ما يدعو إليه **محمد** ﷺ حقًّا أو باطلًا.. لا يهم.. المهم أن يبقى **أبو سفيان أبا سفيان**.. سيدًا لقريش..

كان **أبو سفيان** هو قائد قافلة **قريش** التجارية التي تعتزم المرور من عند بئر **بدر**..

وقد سبق **أبو سفيان** قافلته لاستطلاع أخبار هؤلاء المسلمين.. فقد كان يتوقع أنهم لابد مباغِتون.. حيث قد هاجروا من **مكة** سرًّا، وخوفًا منه وقومه، دون أن يصطحبوا أموالهم ومتاعهم.. لذا فلابد أن يسعى أتباع **محمد** ﷺ لنيل ما تطوله أيديهم من أموال **قريش!**

سأل **أبو سفيان** من كان عند **بدر**:

ـ هل رأيتم مِن أحد؟

قالوا:

ـ لا، إلا رجلين.

قال:

ـ أروني مَنَاخَ ركابهما.

لم يكن **أبو سفيان** ساذجًا أو سهلًا.. كان داهية.. وهو يعلم هذا!

لذا كان لابد له أن يعرف من هذان الرجلان اللذان مرَّا ببئر **بدر**.. حيث لم يكن لكلمة **صدفة** معنى في قاموسه.. خاصةً في ظل توجسه من

المسلمين..

لذا طلب أن يرىٰ المكان الذي استقرَّ فيه بعيرَا الرجلين.. وعندما أوصله من سألهم إلىٰ المكان، أخذ يفحصه ببصره بدقه.. ثم تقدم رويدًا، وركع علىٰ ركبتيه، ملتقطًا البعر الذي خلفته البعير.. كان يريد أن يعرف غذاء هذا البعير لكي يدرك من أين جاء الرجلان!

ففت البعر في راحته فإذا هو فيه النوىٰ.. فقال:

ـ هذا والله علائف **يثرب!**

قافلته في خطر إذن!..

كان يعلم بخبرته بالدواب أن النَّوَىٰ من علائف أهل **يثرب** لبعيرها. إذن فالرجلان ممن أسلموا وأنصارهم.. ومرورهما من هنا دليلٌ علىٰ نية **محمد** ﷺ المبيَّتة للظَّفَر بقافلة **أبي سفيان**..

هنا أرسل **أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفاري الكناني** إلىٰ **قريش** يستنجد بالجيش لملاقاة المسلمين..

ـ يا **ضمضم**.. قل لقومنا إن **محمداً** وأتباعه قد هاجموا قافلتنا وسلبوا أموالنا.. اجعل هيئتك تدل علىٰ ذلك.

وغيَّر **أبو سفيان** طريق القافلة، واتجه نحو ساحل بحر القلزم..



وصل **ضمضم بن عمرو الغفاري** إلىٰ **مكة**، وقد حوَّل رحلَه وجدَّع أنفَ بعيره، وشق قميصه من قُبُل ومن دُبُر، ودخل **مكة** وهو ينادي بأعلىٰ صوته:

ـ يا معشر قريش، اللطيمةَ، اللطيمةَ، أموالكم مع **أبي سفيان** قد عرض لها **محمد** في أصحابه، لا أرىٰ أن تدركوها، الغوثَ، الغوثَ.

فتحفَّز الناس سراعًا، وقالوا:

ـ أيظنُّ **محمدٌ** وأصحابه أن تكون كعير **ابن الحضرمي**؟ كلا، والله ليعلمن غير ذلك!

وخرج جميع رجالات **قريش** إلىٰ هذا القتال.. إنها الحرب.. ولا ريب.



٢١ ـ إرهاصات بدر

جهّز القرشيون عُدتهم للتحرك للقتال.. لإنقاذ قافلة **أبي سفيان**..

وعندما تأكد **أبو سفيان** من سلامة القافلة أرسل إلىٰ زعماء **قريش** وهو بـ**الجُحفة** برسالة أخبرهم فيها بنجاته والقافلة، وطلب منهم العودة إلىٰ **مكة**..

لكن..... لم يطمئن **أبو جهل**.. لابد من إظهار هيبة قوات وسادات **قريش** لمن سمّوا أنفسهم بالمسلمين.. لابد من درء أي هجوم محتمل منهم مستقبلًا..:

ـ والله لا نرجع حتىٰ نَرِدَ **بدرًا**، فنقيم بها ثلاثًا، فننحر الجَزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا!

لسوف تلتمع السيوف القرشية الضارية تحت أشعة شمس النهار الحارقة.. تلتمع لتغشىٰ عيون المهاجرين إلىٰ **يثرب** وأنصارهم..

لسوف تعلو المعازفُ وتتراقص الغواني.. ليتأكَّد مَنْ فرُّوا أن **قريشًا** قادرة علىٰ التمركز والتشعب في أي مكان ومن أي مكان..



علِم الرسول ﷺ بنجاة قافلة **أبي سفيان** ممن يستطلعون الأنباء.. كما علم باستعراض القوة والعنفوان الذي يبتغي **أبو جهل** أن يقيمه.. وكان لابد من ردٍّ على هذه النية الحاقدة!

وكعادته، استشار النبيُّ ﷺ أصحابَه في الأمر.. حينئذ تزعزعت قلوب فريق من الناس، وخافوا اللقاء الدامي..

لكن قادة المهاجرين لم ينسوا ما فعله معهم المشركون في **مكة**.. لم ينسوا ما نالهم من عذاب وضرب وكيٍّ بالنار لكي ينطقوا بكلمة الكفر.. لم ينسوا تركهم لأموالهم وديارهم من أجل الهجرة من وجه الظلم. لذا كان المهاجرون هم المبادرون الذين أصروا على القتال..

كان أشدهم إصرارًا **أبا بكر** و**عمر بن الخطاب** و**المقداد بن الأسود**، فقد قال **المقداد بن الأسود** ـ وهو من الصحابة المهاجرين ـ، للرسول محمد ﷺ:

ـ يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لـ**موسى**: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾.. ولكن امضِ ونحن معك.

كان القادة الثلاثة الذين تكلموا من المهاجرين، والمهاجرون قِلَّةٌ في الجيش.. وكان الرسول ﷺ يهمه أن يعرف رأيَ الأنصار.. فهم الأغلبية وأصحاب الديار.. لم يكن الرسول يحب أن يكون في نفس الأنصار شيء.. أو إجبار.. أو خوف.. كما أن بيعة العقبة الثانية لم تكن تنص

علىٰ حماية الأنصار للرسول خارج نطاق **المدينة**..

لذا توجه ﷺ إلىٰ الأنصار فقال:

ـ أشيروا عليَّ أيها الناس.

وقد أدرك الصحابي الأنصاري **سعد بن معاذ**، وهو حاملُ لواء الأنصار، مقصدَ الرسول من ذلك، فنهض قائلًا:

ـ والله لكأنك تريدنا يا رسول الله.

ـ أجل.

ـ لقد آمنَّا بك وصدَّقناك، وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناك علىٰ ذلك عهودنا ومواثيقنا علىٰ السمع والطاعة، فامضِ يا رسولَ الله لما أردتَ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخُضتَه لخُضناه معك، ما تخلَّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقىٰ بنا عدونا غدًا، إنا لصَبْر في الحرب، صِدْق عند اللقاء، ولعل الله يريك منَّا ما تَقَرُّ به عينُك، فسِرْ علىٰ بركة الله.

وقام **سعد بن عبادة** فقال:

ـ إيَّانا تريد يا رسول الله، والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلىٰ برك الغماد لفعلنا!!

فقال الرسول ﷺ:

ـ سيروا وأبشروا ؛ فإن الله تعالىٰ قد وعدني إحدىٰ الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلىٰ مصارع القوم.

هنا انعقد لواء المهاجرين والأنصار علىٰ الحرب ضد مشركي **قريش**.. وسادات **قريش**..

بدأ مسير المسلمين لمعرفة أين يقبع مشركو **قريش**..

وتقدَّم الرسول ﷺ مع **أبي بكر** حتىٰ وصلا إلىٰ شيخٍ من العرب يقال له **سفيان الضمري الكناني** ، فسأله ﷺ عن **قريش** ، وعن **محمد** وأصحابه ، وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ:

ـ لا أخبركما حتىٰ تخبراني ممن أنتما ؟

فقال له الرسول:

ـ إذا أخبرتَنا أخبرناك.

ـ أذاك بذاك ؟

ـ نعم.

فأخبرهما **سفيان** بكل شيء.. فالرجل كان يجيد تلقِّي المعلومات من جهات شتىٰ.. أخبرهما بوقت خروج **محمد** ﷺ وأصحابه ، وإلىٰ أين

وصلوا اليوم باحتساب وقت تنقلهم.. وبوقت خروج رجال **قريش**، وإلىٰ أين وصلوا اليوم باحتساب وقت تنقلهم..

ثم قال:

ـ ممن أنتما؟

فقال له الرسول ﷺ:

ـ نحن من ماء!!

ثم انصرف عنه والشيخ يقول:

ـ ما من ماء، أمن ماء **العراق**؟

لم يكن من الممكن أن يخبره الرسول بحقيقته وحقيقة أصحابه لأنه لا يأمن الرجلَ ولا يعرفه، ويعلم أن ملأ **قريش** قد يمرُّون به.. وكان من المستحيل أن يكذب الرسول بالطبع.. لذا باغته بإجابة ليست كاذبة وإنما لا تؤدي إلىٰ شيء.. فقد قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾.. فجميع المخلوقات خُلِقوا من ماء!!..

ونظَّم الرسولُ ﷺ جندَه، وقسم جيشه إلىٰ كتيبتين: كتيبة المهاجرين، وأعطىٰ رايتَها **عليَّ بن أبي طالب**، وكتيبة الأنصار، وأعطىٰ رايتها **سعدَ بن معاذ**، وجعل علىٰ قيادة الميمنة **الزبير بن العوام**، وعلىٰ الميسرة **المقداد بن عمرو**، وكان **الزبير** و**المقداد** هما الفارسان الوحيدان في

الجيش ، وجعل على الساقة **قيسَ بن أبي صعصعة** . . وأرسل **عليَّ بن أبي طالب** و**الزّبيرَ بن العوام** و**سعدَ بن أبي وقاص** في نفر من أصحابه إلى ماء **بدر** ، ليأتوا له بالأخبار عن جيش **قريش** . .

فوجدوا غلامَيْن لـ**قريش** يستقيان للجيش ، فأتوا بهما إلى الرسول ﷺ وهو يصلِّي ، فسألوهما ، فقالا :

ـ نحن سقاة **قريش** ؛ بعثونا لنسقيهم من الماء .

لم يطمئنَّ المسلمون إلى هذا القول . . فقد أحسَّا أن الغلامَيْن لـ**أبي سفيان** لأنه كان قائد القافلة التي أشعلت فتيل الحرب . . ويعلم المسلمون مدى الكراهية التي تشتعل في قلبه لهم ولرسولهم . . لذا اشتدَّ بعض الصحابة على الغلامَيْن لكي يعترفا بما ظنَّه الصحابة هو الصدق ، فقالا مُرغَمَيْن :

ـ نحن لـ**أبي سفيان**!!

فتركوهما . . وكان الرسول ﷺ قد انتهى من صلاته ، فقال :

ـ إذا صَدَقَاكم ضربتموهما ، وإذا كَذَبَاكم تركتموهما! صَدَقَا والله ، إنهما لـ**قريش** . .

وقال لهما :

ـ أخبراني عن جيش **قريش** .

فقالا :

ـ هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعُدوة القُصوى .

ـ كم القوم؟

ـ كثير.

ـ ما عِدتهم؟

ـ لا ندري.

ـ كم ينحرون كل يوم؟

ـ يومًا تسعًا ويومًا عشرًا.

ـ القوم ما بين التسعمائة والألف.. فمن فيهم من أشراف **قريش**؟

فذكرا **عتبة بن ربيعة**، و**شيبة بن ربيعة**، و**أبا جهل بن هشام**، و**أمية بن خلف**، و**أبا البختري بن هشام**، و**حكيم بن حزام**، و**نوفل بن خويلد**، و**الحارث بن عامر بن نوفل**، و**طعيمة بن عدي بن نوفل**، و**النضر بن الحارث بن كلدة**، و**زمعة بن الأسود**، و**نبيه بن الحجاج**، و**منبه بن الحجاج**، و**سهيل بن عمرو**، و**عمرو بن عبد ود**..!

فأقبل الرسول ﷺ إلىٰ أصحابه قائلًا:

ـ هذه **مكة** قد ألقت إليكم أفلاذَ كبدها!!

واكتملت المعلومات.. ووضح خطُّ سَيْر جيش **قريش** ومبتغاه ما توقع الشيخ **سفيان الضمري الكناني** بحسابه لزمن تحركهم..

بدر.. بئر **بدر**..

هناك سيعسكرون.. هناك سيمكثون ويشربون..

وسار الرسول مسرعًا ومعه أصحابه إلىٰ **بدر** ليسبقوا **قريشًا** إلىٰ مائها، وليَحُولوا بينهم وبين الاستيلاء عليها.

نزل الرسول والمسلمون عند أدنىٰ ماء من مياه **بدر**، فقال **الحباب بن المنذر** للرسول ﷺ:

ـ يا رسولَ الله، أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلًا أَنْزَلَكَه اللهُ ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

ـ بل هو الرأي والحرب والمكيدة.

ـ يا رسولَ الله فإنَّ هذا ليس بمنزل، فانهضْ يا رسولَ الله بالناس حتىٰ تأتي أدنىٰ ماء من القوم فننزله ونغور ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون!!

فأخذ الرسولُ ﷺ برأيه ونهض بالجيش حتىٰ أقرب ماء من العدو فنزل عليه، ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار.

وبعد نزول الرسول ﷺ والمسلمين علىٰ أدنىٰ ماء **بدر** من **قريش**، اقترح **سعد بن معاذ** علىٰ الرسول:

ـ يا نبيَّ الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه ثم نلقىٰ عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا علىٰ عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرىٰ

جلست علىٰ ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلَّف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقىٰ حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك اللهُ بهم، ويناصحونك، ويجاهدون معك!!

فأثنىٰ عليه الرسول ﷺ ودعا له بخير، ثم بنىٰ المسلمون العريشَ للرسول صلىٰ الله عله وسلم علىٰ تَلٍّ مُشْرِف علىٰ ساحة القتال، وكان معه فيه **أبو بكر الصديق**، وكان بعض من شباب الأنصار يحرسون هذا العريش..

كانت هذه هي ليلة المعركة.

أخذ الرسول ﷺ ينظِّم صفوفَ جيش المسلمين من أجل المعركة.. وجعل الشمسَ خلفهم واستقبلوا مغربها.. وبهذا صارت الشمس في وجه أعدائهم..

كما أخذ يعدل الصفوفَ ويقوم بتسويتها لكي تكون مستقيمة متراصَّة، وبيده سهم لا ريشَ له يعدل به الصف، فرأىٰ رجلًا اسمه **سواد بن غزية**، وقد خرج من الصف فضربه في بطنه، وقال له:

ـ استوِ يا **سواد**!!

ـ يا رسول الله أوجعتَني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأَقِدْنِي!!

فكشف الرسول ﷺ عن بطنه وقال:

ـ استَقِد!

فاعتنقه **سواد** فقبّل بطنه، وقال:

ـ ما حملك علىٰ هذا يا **سواد**؟!

ـ يا رسول الله حضر ما ترىٰ فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك.!!

ثم بدأ الرسول ﷺ بإصدار الأوامر والتوجيهات لجنده، ومنها:

ـ إن دنا القومُ منكم فانضحوهم بالنَّبْل.. ولا تَسُلُّوا السيوفَ حتىٰ يغشوكم.. واسْتَبْقُوا نَبْلَكم..

قبل وصول **قريش** إلىٰ **بدر** بعثتْ **عميرَ بن وهب الجمحي**، للتعرُّف علىٰ مدىٰ قوة جيش المدينة، فدار **عمير** بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم فقال:

ـ ثلاثمئة رجل، يزيدون قليلًا أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتىٰ أنظر أَلِلْقَومِ كمين أو مدد.

فضرب في الوادي حتىٰ أبعد، فلم ير شيئًا، إلا أنه طالع وجوه بعض أفراد جيش **المدينة**.. لم يكن ما طالعه وجوهًا كأي وجوه.. وإنما كانت جمارًا مشتعلة من الصِّدق والعزم.. جمارًا تشتعل بالفداء وحب الموت أكثر من الحياة.. جمارًا مشتعلة بإيمان قوي جازم لا يخيفه سلاحٌ أو

عتاد من عدو..

رجع **عمير** إلىٰ قومه فقال:

ـ ما وجدتُ شيئًا، ولكني قد رأيتُ يا معشرَ **قريش** البلايا تحمل المنايا، نواضح **يثرب** تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرىٰ أن يُقتل رجلٌ منهم حتىٰ يَقتلَ رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادكم، فما خير العيش بعد ذلك، فَرَوْا رَأْيَكم!!

ولكنَّ **أبا جهلٍ** رفَضَ العودةَ إلىٰ **مكة** من دون قتال.. لابد من قتال المسلمين.. وقتلهم... وإبادتهم من الوجود تمامًا.. لن يهاب ما طالعه **عمير** في وجوه هؤلاء.. سيطير السيفُ رؤوس هذه الوجوه.. هكذا حسِب **أبو جهل**!



٢٢ ـ بدر

وصل جيشُ **مكة** إلىٰ **بدر**.. لم يكونوا جميعُهم علىٰ قلب رجل واحد.. وإنما منهم من هو مُزعزع النفس.. **يخشىٰ** لقاءَ **محمد** ﷺ وأصحابه.. منهم مَن يتذكَّر أن هؤلاء الفقراء الضعفاء قد واجهوا العذاب الضاري في **مكة** من قبل ولم ينطقوا بكلمة تُنجيهم.. فقط كلمة.. فكيف سيكون حالهم إن أمسكوا سيوفًا للقتال!

نعم.. هم قِلَّة.. ولكن.. الثقة لدىٰ **قريش** مهتزة.. الثقة مرتبكة..

ولقد رآهم المسلمون في تقدمهم نحو **بدر** من علىٰ بُعْدٍ وجيز.. ونظر الرسول ﷺ إلىٰ **عتبة بن ربيعة** وهو علىٰ جمل أحمر، فقال:

ـ إن يكن عند أحدٍ من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا..

وكان **عتبة** يقول:

ـ يا قوم أطيعوني في هؤلاء القوم فإنكم إن فعلتُم لن يزال ذلك في قلوبكم، ينظر كل رجل إلىٰ قاتل أخيه وقاتل أبيه، فاجعلوا حقَّها برأسي وارجِعوا!

فقال **أبو جهل**:

ـ انتفخ والله سِحْرُه حين رأىٰ **محمدًا** وأصحابه!!، إنما **محمد**

وأصحابه أكلة جزور لو قد التقينا!

فقال **عتبة**:

ـ ستعلم مَن الجبانُ المفسِدُ لقومه، أما والله إني لأرىٰ قومًا يضربونكم ضربًا، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي وكأن وجههم السيوف!!

إلا أن **أبا جهل** قال ليسكتَه:

ـ لقد جبُن **ابن ربيعة** لأن ابنه **أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة** في جيش **محمد**، فلا نرجع حتي نَرِدَ ماءَ **بدر** وتعزف القيان وتدق الطبول وتسمع بنا العرب.. اللهم أقطعُنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأَحِنْه الغداة، اللهم أينا كان أحب إليك وأرضىٰ عندك فانُصرْه اليوم!

كانت الغاشية تغشىٰ قلوبَ وعقول جيش **مكة**.. وعقول مثل **أبي جهل** و**أبي سفيان** كانت تأبىٰ إلا أن تثخن في الأرض.. آملين أن تكون نهاية **محمد** وأصحابه..

لقد ابتكر الرسول ﷺ في قتاله مع أعدائه يوم **بدر** أسلوبًا جديدًا في مقاتلة الأعداء، لم يكن معروفًا من قبلُ عند العرب، فقاتل بنظام الصفوف.. حيث كان المقاتلون علىٰ هيئة صفوف الصلاة، وتقلُّ هذه الصفوف أو تكثُر تبعًا لقلة المقاتلين أو كثرتهم، وتكون الصفوف الأولىٰ

من أصحاب الرماح لصد هجمات الفرسان، وتكون الصفوف التي خلفها من أصحاب النبال، لتسديدها من المهاجمين على الأعداء.. واتبع الرسولُ أسلوبَ الدفاع ولم يهاجم قوة **قريش**..

ـ والذي نفس **محمد** ﷺ بيده، لا يقاتلهم اليومَ رجلٌ فيُقتَل صابرًا محتسبًا مُقبلًا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، ومن قتَل قتيلًا فله سَلَبُهُ.

كانت بداية المعركة.. حيث فوجئ المشركون بالحوض الذي شيده المسلمون عند بئر **بدر** لمنع القرشيين من الشرب.. كان لابد لهم من كسر هذا التحدي في بداية الحرب..

خرج رجلٌ من جيش **قريش** هو **الأسود بن عبد الأسد المخزومي** قائلًا:

ـ أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه!!

فخرج إليه **حمزة بن عبد المطلب**، فلما التقيا ضربه **حمزة** في قدمه فشُقَّت قدمه وتفجرت منها الدماء فصرخ الرجل ساقطاً على ظهره.. ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه.. لابد أن تُبَرَّ يمينُه.. ولكن **حمزة** ـ بضربة أخرى ـ أتى عليه وهو داخل الحوض.

وبسقوط أول قتيل من جيش **قريش** كان لابد من بدأ المبارزات..

فخرج من جيش **قريش** ثلاثة رجال هم: **عتبة بن ربيعة** وأخوه **شيبة بن ربيعة** وابنه **الوليد بن عتبة**، وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار وهم: **عوف** و**معوّذ** ابنا **الحارث** و**عبد الله بن رواحة**.. قال لهم

القرشيون:

ـ من أنتم؟

قالوا:

ـ رهْطٌ من الأنصار.

ـ أكفاءٌ كرام، ما لنا بكم حاجة، وإنما نريد بني عمِّنا.. يا **محمد**، أخرِجْ إلينا أكفاءَنا من قومنا!!

فقال الرسول:

ـ قم يا **عبيدة بن الحارث**، وقم يا **حمزة**، وقم يا **علي**.

وبارز **حمزةُ شيبةَ** فقتله، وبارز **عليٌّ الوليدَ** وقتله، وبارز **عبيدةُ بن الحارث عتبةَ** فضرب كلُّ واحد منهما الآخَرَ بضربة موجِعة، فكرَّ **حمزة** و**عليٌّ** علىٰ **عتبة** فقتلاه، وحملا **عبيدة** وأتيا به إلىٰ الرسول **محمد** ﷺ.. لكن..... تُوفّي **عتبة** متأثراً من جراحته، وهنا تكلم الرسول ﷺ:

ـ أشهَدُ أنَّك شهيد.

واشتعل غضب القرشيين لمقتل الثلاثة.. وانقضوا بالهجوم علىٰ جيش المسلمين..

فصمد وثبت له المسلمون، وهم واقفون موقف الدفاع، ويرمونهم بالنبل كما أمرهم الرسول.. وكان شعارُ المسلمين: «أَحَدٌ أَحَدٌ»،

ثم أمرهم الرسول ﷺ بالهجوم قائلاً:

ـ شُدُّوا..

ووعد النبي ﷺ من يُقتل صابرًا محتسبًا بأن له الجنة.. ثم سمع الجميع صوت الرسول يهتف:

ـ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ..

واشتعل القتالُ.. واستمر.. وتطايرت الرؤوس والدماء والأطراف..

كان **معاذ بن عمرو بن الجموح** غلاماً وكذا كان أخيه **معوَّذ**.. كان الأول يراقب **أبا جهل** في المعركة.. كان يدرك أن **أبا جهل** هو رأس ضخم من رؤوس الكفر والشِّرك، وأن قطع هذا الرأس سيجلي الكثيرَ من الغُمة عن المسلمين وسيساهم في رفع راية الحق..

ولقد رصد **معاذ أبا جهل**.. كان الأخير محتمياً خلف شجر ملتفّة، حتىٰ لا تطوله السهام الغزيرة لرماة المسلمين.. تسلل **معاذ** ناحية هذه الشجرة موطئًا جسدَه الضئيل ليختفي عن الأعين وليتَّقِيَ السهامَ المتطايرة.. ثم تحرَّك إلىٰ ما خلف الشجرة.. وانقضَّ علىٰ **أبي جهل**..

صُعِق رأس الكفر، فصرخ محاولاً دفع **معاذ** عنه.. إلا أن الغلام السريع الخفيف قد استلَّ سيفه، وضرب قدم **أبي جهل**.. ولما كان السيف حادًّا بحق فقد أطار نصله نصف ساق **أبي جهل**.. وصرخ الرجل ساقطًا في دمائه..

وبرز **عكرمة بن أبي جهل**، فانقضَّ علىٰ **معاذ** ليُبْعِدَه عن أبيه، وضرب **معاذاً** علىٰ يده فتألم وأصيب بشدة.. وراح **عكرمة** يكيل لـ**معاذ** اللكمات القوية المتتالية..

حتىٰ ظهر **معوّذ** الذي كان في إِثر أخيه **معاذ**.. واستغل عراك أخيه وسقوط **أبي جهل** المنهار، فانقض علىٰ **أبي جهل** بسيفه فأصابه بطعنة ضارية، اصطبغ لها جسد رأس الكفر ووجه **معوذ** بالدماء المتناثرة..

وتجلت أمارات الهزيمة علىٰ رجالات جيش المشركين.. وبدأوا يفرون منسحبين أمام الجيش الإسلامي الباطش..

انتهت المعركةُ.. وعَلَتْ راياتُ الإسلام بالنصر الأول للمسلمين علىٰ المشركين في أول معركة.. ثأر المهاجرون ممن أخرجوهم من ديارهم وأموالهم.. وصار للإسلام ـ وبحقٍّ ـ سيفٌ يحميه..

وقال رسول الله ﷺ:

ـ من ينظر ما صنع **أبو جهل**؟

فانطلق الناس في طلبه..

ورآه **عبد الله بن مسعود** سائحاً في دمائه يئنّ.. كان الكافر العتيد في آخر رمق.. وكأنّ الموت يأنف من طيِّه تحت رايته السوداء!

وضع **عبد الله** رجله علىٰ عنق **أبي جهل** وأخذ لحيته ليحتز رأسه..

كان **أبو جهل** عنيدًا يأبىٰ الهزيمة، وأنِفًا يأبىٰ الانكسار.. فحتىٰ هذه اللحظة العسيرة، وهو يلفظ أنفاسَه الأخيرة.. سأله **أبو جهل** وهو علىٰ أعتاب الموت:

ـ لمن الغلبة اليوم؟

ـ لله ورسوله يا عدوَّ الله..

تأمل **أبو جهل** بعينين مضرجتين بالدماء رِجْلَ **عبد الله** علىٰ عنقه، ونطق من وسط لهاثه:

ـ لقد ارتقيتَ مرتقًىٰ صعبا يا رُوَيْعَي الغنم!

فرد **ابن مسعود** ببتر رأسه العنيد بضربة سيف بتار..

ثم حمل الرأس الثقيل إلىٰ رسول الله ﷺ.. كان الرأس أثقل من المعتاد.. لقد ثقُلَ بالكفر.. بالبغض.. بالحقد، فسُرَّ الرسول ﷺ لما بلغه الخبر وقال:

ـ الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أَرِنِيه.

فانطلق الرسول ﷺ مع الصحابة، فأروه إياه، فقال:

ـ هذا فرعون هذه الأمة.



٢٣ ـ آثار بدر

لم يكن القهر والانهيار الذي حل بـ**هند بنت عتبة** على وجه الخصوص بشيءٍ عادي بعد انتهاء غزوة **بدر**.. فلقد قاربت الجنون والاهتياج النفسي..

إذ إن لها ثلاثة قتلى في هذه المعركة، هم الأهم والأعز في حياتها.. أبوها **عتبة بن ربيعة**، وعمها **شيبة بن ربيعة**، وأخوها **الوليد بن عتبة**..

لذا شعرت أن مصيبتها أسود من مصيبة **الخنساء** التي فقدت قديمًا أباها **عمرو بن الشريد**، وأخويها **صخر** و**معاوية**، الذين قُتلوا في أحد أيام العرب في الجاهلية..

اعتزمت المرأة القرشية القوية **هند** على الانتقام الأسود من أتباع **محمد**.. وعلى الأخص من فارس فرسان المسلمين.. **حمزة بن عبد المطلب**.. شقيق غريمتها **صفية بنت عبد المطلب**.. إذ علمت **هند** أن **حمزة** هو قاتل عمها **شيبة**، ومشارك في قتل أبيها **عتبة**..

أقسمت **بنت عتبة** على أن تأكل لحم **حمزة** بأنيابها!

استدعى **جبير بن مطعم** عبدَه **حبشي**، وزرع فيه بصره الثاقب المحفز،

ثم قال:

ـ أما تزال تحتفظ بحربتك ؟!!

ـ نعم سيدي..

ـ أما زلت ترمي بها الرمية فلا تخطئ مرماها أبدًا ؟!!

ـ لم يحدث أن أخطأت مرماي قط.. سيدي!

ـ **حمزة بن عبد المطلب**.. قتل عمي **طعيمة بن عدي بن الخيار** بـ**بدر**..

واقترب **جبير** من **حبشي** وقال في عينيه مباشرة:

ـ إن قتلت **حمزة** بعمِّي فأنت حرٌّ!!

والحق إن **حبشي** ـ رغم قوته وعنفوانه ـ قد ارتعد قلبه.. يعلم أن **حمزة** فارس مغوار.. ومواجهته ستكلفه حياته على الأرجح.. لذا لابد لـ**حبشي** من اختلاس اللحظة المناسبة.. واقتناصها.. فللحرية ثمن غال جدًا.. والثمن: حياة **حمزة!**

شرارة الانتقام سرت في نفوس وقلوب وعقول أهل **قريش**.. إن ما وقع في **بدر** ليس بالأمر الهين.. إنما هو هزيمة مريرة لا يتصورها عقل من قلة قليلين لساداتهم من **قريش**!!

والذي لا يقل سوءًا هو تهديد المسلمين لرحلتي الشتاء والصيف إلىٰ الشام واليمن.. حيث تأكد أن المسلمين سيقطعون طريق القرشيين إلىٰ **الشام!!**

الأمر إذن فاق في خطورته التوقعات، كما فكَّر في ذلك **أبو سفيان!**

فعلاوة علىٰ القتلي السبعين من جيش **مكة**، فإن المصالح التجارية ستتأثر بشدة..

لا مفرَّ إذن من انتقام قرشي صارم وسريع..

وفي هذا الإطار، ذهب كلٌّ من **صفوان بن أمية**، و**عبد الله بن ربيعة**، و**عكرمة بن أبي جهل** إلىٰ **أبي سفيان**، وطلبوا منه مال قافلته كي يستطيعوا تجهيز الجيش لمهاجمة المسلمين.. كان مقدار ربح القافلة حوالي خمسين ألف دينار، فوافق **أبو سفيان**..

بعدها، بعثت **قريش** مندوبين إلىٰ القبائل لتحريضهم علىٰ القتال.. الثأر الثأر.. فُتِح باب التطوع للرجال من قبائل **الأحباش** و**كنانة** و**تهامة**.. جمعت **قريش** ثلاثة آلاف مقاتل مع أسلحة و٧٠٠ درع، وكان معهم أيضًا ٣ آلاف من البعير و٢٠٠ فَرسًا و١٥ ناقة ركبت عليهن ١٥ امرأة لتشجيع المقاتلين، وتذكيرهم بما حدث في غزوة **بدر**، ودعمهم في حال الحاجة..

كانت القيادة العامة للجيش بيد **أبي سفيان**، في حين كان **خالد بن الوليد** قائد الفرسان بمعاونة **عكرمة بن أبي جهل**، أما قيادة اللواء فكانت لـ**بني**

عبد الدار . .

في سياقٍ سري ، تحدَّث **العباس بن عبد المطلب** إلىٰ الرسول ﷺ . .

حيث كان **أبو سفيان** قد طلب من **العباس** أن يشارك في قتال المسلمين ، لكنه رفض . . كانت صلة الدم بينه وبين **محمد** ﷺ أقوىٰ من أي ضغينة أو اختلاف عقائدي . . أو قَبَلي . .

وأخبر **العباس** الرسول ﷺ بما يعتزمه المشركون من ثأر دموي مهلك . . فقال الرسول ﷺ:

ـ قد رأيت والله خيرًا . . رأيت بقرا تُذبَح ، ورأيت في ذباب سيفي ثلمًا ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة ، فأَوَّلْتُها المدينةَ .

أعد المسلمون خطتَهم لصد هجوم المشركين المزمَع . .

تولت فرقة من الصحابة من الأنصار حراسة الرسول ﷺ ، علىٰ رأسهم: **سعد بن معاذ** ، **وسعد بن عبادة** ، **وأسيد بن حضير** ، وقامت مجموعات من الصحابة بحراسة مداخل المدينة وأسوارها . .

كانت خطة المسلمين في المعركة هي أن يجعل الرسول ﷺ المدينةَ أمامَه ، وجبلَ **أُحد** خلفَه ، ووضع خمسين من الرماة علىٰ قمة هضبة عالية مشْرفة علىٰ ميدان المعركة ، وكان قائدهم هو **عبد الله بن جبير** . وأمرَهم

الرسول ﷺ بالبقاء في أماكنهم وعدم مغادرتها إلا بإذن منه، حيث قال لهم:

ـ ادفعوا الخيلَ عنَّا بالنبال.

وقام بتقسيم الجيش إلىٰ عدة أقسام واستلم قيادةَ المقدمة.



٢٤ ـ غزوة أحد

سلكت **قريش** مع حلفائها الطريقَ الغربية الرئيسةَ، وتابع الجيشُ مسيرَه حتىٰ اقترب من **المدينة**، فعبر من وادي **العقيق** الذي يقع شمال **المدينة** بجانب **أُحُد**، ثم انحرف إلىٰ جهة اليمين حتىٰ وصل مكانًا يدعىٰ **عينين** في منطقة **بطن السبخة** عند قناة علىٰ شفير الوادي، وعسكر هناك.

علىٰ الجانب الآخر، عقد جيش **مكة** ثلاثة ألوية: لواء مع **طلحة بن أبي طلحة العبدري القرشي**، ولواء مع **سفيان بن عويف الحارثي الكناني** ولواء مع رجل من الأحابيش من **كنانة**.

علم المسلمون بتقدُّم **قريش** وحلفائها، فأمر الرسول ﷺ السكان بالبقاء في المدينة، بحيث إذا قرر جيش **قريش** دخول المدينة يدافع عنها الرجال في مداخل الأزقة، والنساء من علىٰ سطوح البيوت..

وأعطىٰ الرسول ﷺ راية جيشه لـ**مصعب بن عمير**، وجعل **الزبير بن العوام** قائدًا لأحد الأجنحة و**المنذر بن عمرو** قائدًا للجناح الآخر، ورفض الرسول مشاركة **أسامة بن زيد** و**زيد بن ثابت** في المعركة لصِغر سنهما..

دفع الرسول ﷺ سيفه إلىٰ **أبي دجانة الأنصاري** وكان مشهورًا بوضع

عصابة حمراء أثناء القتال، وكان مشهورًا أيضًا بالشجاعة والتبختُر بين الصفوف قبل بدء المعركة.. فقال فيه الرسول ﷺ:

ـ إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن.

هتف الرسول ﷺ برجاله:

ـ أَمِتْ، أَمِتْ.

وبدأت المعركة..

ووضع المسلمون هدفًا لهم إسقاطَ لواء **قريش**..

واشتبكت السيوف بالسيوف والرماح بالرماح والأجساد بالأجساد.. واختلطت الدماء بالغبار بالصراخ.. المتألم، والمتحمس..

قتل **عليٌّ بن أبي طالب طلحةَ** حامل لواء **قريش**.. أخذ اللواءَ بعده شخصٌ يسمىٰ **أبا سعد**.. قتله **سعد بن أبي وقاص**.. حمل اللواء **صوأب** وهو عبد حبشي لبني **عبد الدار** فلما قتل رفعته **عمرة بنت علقمة الحارثية الكنانية** زوجة **غراب بن سفيان بن عويف الكناني**.. فلاثوا به وبقي اللواء مرفوعًا!

في هذه الأثناء انتشر المسلمون علىٰ شكل كتائب متفرقة.. واستطاعت نبال المسلمين إصابةَ الكثير من خيل أهل **مكة**.. وتفجرت الدماء القرشية، راحت الدماء تجري وراء أصحابها من الأحياء الذين يحاولون

الفرار من القوة الإسلامية الضارية..

تدريجيًّا بدأ جيش **مكة** بإلقاء دروعهم وتروسهم تخفُّفًا للهرب..

صاح رماة المسلمين الذين تم وضعهم على الجبل:

ـ الغنيمة، الغنيمة..

ونزل أربعون منهم إلى الغنيمة.. نزلوا بالمخالفة لأوامر القائد **محمد** ﷺ.. بينما بقيت ميمنة **خالد بن الوليد** وميسرة **عكرمة بن أبي جهل** ثابتة دون حراك..

كان لابد من أن تقع الواقعة.. وأطبقت أجنحة الجيش المكي على وسط المسلمين.. وباتت أمارات الهزيمة دانية بعدما انكشفت أطراف الجيش الإسلامي بنزول الرماة إلى الغنائم في القلب..

والأسوأ: تمكنت مجموعة من جيش **مكة** من الوصول إلى موقع الرسول!!

خرج **سباع** في قلب ميدان القتال فقال:

ـ هل من مبارز؟

فخرج إليه **حمزة بن عبد المطلب** فقال:

ـ يا **سباع** يا ابن **أم أنمار** مقطعة البظور.. أتحادُّ اللهَ ورسولَه ﷺ؟

واندفع إليه **حمزة** يبارزه بعنف..

تحت صخرةٍ كَمُنَ **وَحشيٌّ** الموعود بالحرية في مقابل حياة **حمزة**.. كان العبد الضخم يتحيَّن اللحظةَ المناسبة لاقتناصها.. كان كيانه ومستقبله يساوي عمقَ هذه اللحظة المرتقبة.. ولقد أحس بدنوها.. أدار حربته المتينة في يده محاولًا بعثَ ثقةٍ ما في نفسه.. هل تخطئ حربته مرماها لأول مرة في حياته؟.. إن أخطأت ستكون هي المرة الأخيرة في حياته!.. نعم، إنها ستقصد **حمزة** بالذات!!!..

إن **حمزة** منهمك في مبارزة قارعة مع **سباع** المتحدِّي.. والمبارزة متحركة.. ويوشك الجسدان المتبارزان على الاقتراب من صخرة **وحشي**..

لقد دنا **حمزة** من صخرته.. صار **حمزة** في المتناول.. رفع **وحشي** حربته.. وتأكد من أن فارس المسلمين العملاق لا يراه ولا يدري بوجوده.. وتعثر **حمزة**.. وسقط وانكشف درعه عن بطنه!!.. إنها اللحظة.... رمى **وحشي** بحربته.. انغرست الحربة في ثنة **حمزة** حتى خرجت من بين وركيه.. ولقد ارتجفت كل ذرة في كيان **وحشي**.. وتفصد عرقٌ مطيرٌ من جميع جسده.. لو عاش **حمزة** فسينال منه **وحشيٌّ** ما يفوق القتلَ قتلًا!!..

إلا أن **وحشيًّا** قوَّى نفسَه بتذكر وعد الحرية من سيده.. وانتظر حتى تأكد من سقوط الفارس القوي متأثرًا بالحربة المغروسة بجسده.. وبدمائه التي اندفعت جارية على رمال صحراء الموت.. وكأن **وحشيًّا** قد شاهد روح

حمزة تسيل مع الدم بالتدريج . . حتىٰ فاضت وولت . .

وكانت عينان آخران تترقبان المشهد الأخير لفارس المسلمين . . عينا **هند بنت عتبة** . . كانت تتمنىٰ أن تنال هي من **حمزة** إلا أن **وحشيًّا** نفّذ لها ما أرادت دون أن تعرفه أو تطلب منه . . لكنها ـ حين تأكدت من سكون جسد **حمزة** علىٰ أرض المعركة ـ اندفعت من مكمنها مستلّةً خنجرًا معوجًا . . وركعت إلىٰ جوار جسد **حمزة** المسجىٰ بلا حياة . . وبالخنجر شرعت تقطع جسده . . حتىٰ انتزعت كبده بيدين ملطختيْن بدمائه . . وقضمت من الكبد قضمة . .

نعم فقد أقسمت أن تأكل من لحم قاتل أهلها . . إلا أنها لم تستسِغها ولفظتها مغتاظة . . لن تستطيع أن تبَرَّ بوعدها!! . .

وشعرت أنها لم تنتقم . . . فلا هي قتلت **حمزة** ولا أكلت منه!!!!

صفية علىٰ مشارف الستين من العمر . . اشتعل الرأسُ شيبًا أو كاد . . وسارت تغضُّناتُ الوجه دروبًا غير كثيرة علىٰ سطح وجهها . . ربما أضافت تلك الدروب إليها فوق العمر عمرًا بسبب ما عايشته من صراعات عقائدية وصراعات تربوية من أجل ابنها الذي أرادته فارسًا وقد كان . .

وفي تلك المعركة في **أحد** كان ابنها **الزبير** أحد فرسانها . .

وكان أخوها **حمزة** أقوىٰ فرسانها . .

وابن أخيها **محمد** ﷺ رسول الله قائدها..

في تلك المعركة في **أحد** خرجت مع جند المسلمين لنقل الماء وسَقْي العطشىٰ وبَرْيِ السهام وإصلاح القِسِيِّ..

في تلك المعركة في **أحد** كانت **صفية** تعتزم أمرًا لطالما تمنته.. أن تأتيها الفرصة لمعانقة السيف دفاعًا عن عقيدتها التي ملكت عقلَها وجنَّدَتْه للحق..

وتيقنت أنها ستفعلها في الغزوة الحاضرة..

استمرت **صفية** في مهامها المعتادة المذكورة في أرض المعركة.. لم ينحنِ الظهرُ كثيرًا.. لم تصل **صفية** بعدُ إلىٰ السن التي تحنىٰ فيها الظهر، وإنما هي وسوسة من الشيطان بغرض إطفاء عزمها وعزيمتها.. فاستعاذت منه.

كانت **صفية** تراقب بعين راضيةٍ شؤونَ القتال تسير علىٰ أحسن حال، ورؤوس المشركين ودمائهم تتطاير بالحق.. إلا أن الحالَ بدأت تتغير بمجرد نزول الرماة لجمع الغنائم وانكشاف أطراف الجيش.. بل وانكشف معظم الرجال عن الرسول ﷺ ذاته!

كادت سيوف أعداء الله أن تصل إلىٰ جسد النبي الشريف..

هنا جاءت لحظة صفية.. لحظتها الموعودة..

اندفعت **صفية** تخطو فوق سنوات عمرها الدانية من الستين، وتتخطاها..

نحو قلب المعركة.. نحو أسنَّة الرماح والسيوف.. نحو أسنَّة الغبار والدماء..

انتزعت من أحد المنهزمين سيفه.. السيف ثقيل هي تعلم.. لكنها قبضت عليه بكلتا يديها.. وبرزت عروق يديها.. وكادت أن تتفجر.. وصرخت العروق بالألم.. إلا أن وجهها ومُحَيَّاها لم يحمل إلا العزمَ والعزيمةَ والقوة والثبات البيِّنَ..

رفعت **صفية** السيفَ وهي تسير سيرَ القادة المقتدرين.. وبدأت تناوش بالسيف.. ثم بانت لها بعضُ وجوه المشركين في انقضاضهم على المسلمين بل ونحو الرسول ﷺ!.. هنا اختفى ثِقَلُ السيف.. بل صار مجرد ريشة حادة الأطراف.. هنا بدأت تضرب يمينًا ويسارًا.. أدمت وجوهًا وأجسادًا دنسة.. وزأرتْ في المسلمين قائلةً:

ـ ويحكم، أنهزمتُم عن رسول الله!!

فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ:

ـ يَا **زُبَيْرُ** الْمَرْأَةَ!!

خشي عليها النبي ﷺ أن ترى أخاها **حمزة** وهو صريع، وقد مثَّل به المشركون أبشعَ تمثيل.. فقال رسول الله ﷺ لابنها **الزبير**:

ـ القَهَا فارْجِعْهَا لا تَرىٰ ما بأخيها.

فلقيها **الزبير**، وقال:

ـ أي أُمَّهْ إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي.

فقالت:

ـ تنحَّ لا أمَّ لك.

ـ إن رسول الله يأمرك أن ترجعي...

ـ ولِمَ، فقد بلغني أنْ مُثِّلَ بأخي، وذاك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأصبرنَّ ولأحتسبنَّ إن شاء الله.

فلما عاد **الزبير** إلى الرسول ﷺ؛ أخبره قول **صفية**، فقال:

ـ خلِّ سبيلَها.

لقد أبصرت **صفيةً** أخاها، وما نزل به من أذى بعد قتله، ولكن الشأن الآن الحرب، والدفاع عن رسول الله ﷺ..

واصلت **صفية** تقدُّمَها بسيفها تضرب به يمينًا ويسارًا..

لربما يتخيل القلبُ تلك المرأة العجوز، التي بلغت الستين أو جاوزته، وهي تمخر عباب الحرب الرهيبة، برمح تارة، وبسيف تارة، وتقاتل المشركين... لربما لاحظها أحدُ المشركين من وسط غبار المعركة الكثيف.. لاحظها أنها امرأة.. وعجوز.. إنّ أقرانَه الذين أصابهم سيف **صفية** كانوا بين غير ملاحظ لـ**صفية** من وسط الغبار، وما بين مشلول من الذهول لاكتشافه لجنسها وسنها.. إلا أن المذكور الذي نظنه كان الوحيد الذي اكتشف، والوحيد الذي أفاق من ذهوله سريعًا..

لربما فضرب سيفَها بسيفه وهو ينزوي جانبًا عن الجمع.. فكانت الضربة من القوة بحيث أسقطت السيف من يد **صفية**.. لم تكن يد **صفية** باليد القوية التي لا تُفْلِت سيفًا.. هي امرأة.. عجوز.. لا قِبَل لها بقتال الرجال الأشداء علىٰ كل حال..

إلا أنَّ **صفية** ـ ولدهشتها ـ انحنت بأسرعَ من البرق لتستعيدَ السيفَ وتنتصبَ واقفةً في مواجهة الرجل.. ثم بدأت مبارزة عجيبة.. الرجل يوجه ضربات قوية بسيفه.. و**صفية** تصدها بكل ما أوتيت من قوة.. وعزم..

ربما ابتسم الرجل ساخرًا شامتًا.. كان ـ علىٰ ما يبدو ـ متعمدًا ألا يصيب جسد **صفية**.. كان يود إرهابها وإذلالها أولًا، لذا كان يصوب نحو سيفها..

نحسب أنه قد بدأ الدوار يتمكن من **صفية**.. وتراقصت ألسنة اللهاث أمامها.. وهطل عرقها الغزير ليشوش رؤيةَ عينيها.. وبات مُقاتِلُها ظلًّا متموِّجًا.. والسيف في يدها من نار.. يؤلمها فتصرخ من داخلها دون أن تتحرك شفتاها..

وبضربة ليست بالقوية من سيف الرجل سقط السيف ثانية من يدها.. وضحك الرجل شامتًا..

ربما لم تكن الحربُ رحيمةً بـ**صفية**.. أو ربما يهديها القدر شهادةً في ميدان القتال.. شهادة طالما حَلُمَتْ بها، وطالما كانت تحلم بمعانقة

السيف.. ها قد تحقَّق حُلْمُها وقاتلت.. وها هي علىٰ مشارف الشهادة.. إلا أن طعم النصر كان حلوًا أيضًا.. وكانت **صفية** تتوق لأن تتذوقه في هذا القتال..

لكن.......... إنه حكمُ السن.. وحكمُ الجنس.. ربما لم يُخلَق القتالُ للعجائز.. ولا للنساء..

قد ننظر في هذا الخيال، لنرىٰ **صفية** وقد لهثت، وأغرقها العرقُ وسقطت علىٰ الأرض في وضع الاتكاء.. ورفع الرجل سيفه ليهوي به...... تجمدت يدهُ بالسيف في الهواء بفعل نصل السيف الذي انغرس في عنقه، فتعاظمت شهقتُه وجحظت عيناه والدماء تُغرق صدره..

بالفعل استطاعت **صفية** من وضعها الأرضي، أن تستعيد سيفها بسرعة هائلة لم تعهدها في نفسها.. استعادته في ذات اللحظة التي رفع فيها الرجل سيفه ليهوي به عليها.. وفي نفس لحظة استعادته وجَّهَتْه لأعلىٰ نحو هذا الرجل الواقف.. ربما كان ذلك في جزء من لحظة.. ربما كان هذا تعبيرًا عن روحها القتالية التي استيقظت أخيرًا.. وسقط الرجل هالكًا في أرض المعركة.. وحمدت **صفية** ربها لاهثة..

قد يكون الواقع أعظم وأقوىٰ من كل خيال علىٰ كل حال، ولكن المؤكد أنها كانت المعركة الإيمانية التي خاضتها **صفية** لأول مرة... ولن تكونَ الأخيرة!



تفككت الأوصال.. وتفرق أصحاب النبي عن النبي.. وكاد المشركون أن يلتئموا حوله ﷺ..

استطاع **عتبة بن أبي وقاص الزهري القرشي** أن يصل إلىٰ الرسول ﷺ ويكسر خوذته فوق رأسه الشريف.. تمكن **عبد الله بن شهاب الزهري القرشي** من أن يحدث قطعًا في جبهة الرسول ﷺ.. تمكن **عبد الله بن قمئة الليثي الكناني** من كسر أنفه!.. كان قضاء الله وحكمته أن تنال هذه الحرب من رسوله الكريم..

لكن.... **أبو دجانة** انطلق إلىٰ الرسول وارتمىٰ فوقه ليحميه.. فكانت النبل تقع في ظهره.. وبدأ مقاتلون آخرون يهبون لنجدة الرسول ﷺ، منهم **مصعب بن عمير** و**زياد بن السكن** وخمسة من الأنصار.. لكنهم قُتلوا جميعًا!!

وجعل الدم يسيل علىٰ وجهه ﷺ، وجعل يمسح الدمَ وهو يقول:

ـ كيف يُفلح قومٌ خضبوا وجه نبيِّهم وهو يدعوهم إلىٰ ربّهم؟!

ودخلت حلقتان من حِلَق المِغْفَر في وَجْنَتِه ووقع في حفرة.. وكسرت رباعيته..

وهمَّ **عبد الله بن قمئة الليثي الكناني** بالاندفاع نحو الرسول ﷺ، إلا أن **مصعب بن عمير** تصدىٰ له بضراوة وسط غبار المعركة الكفيف!.. قاتل **بن قمئة** بقوة وقد أقنعه الغبار الساتر أنه يقاتل الرسول ذاته!..

ضربة قاتلة من سيف المشرك أنهت حياة **مصعب**.. هنا صاح **بن قميئة**:

ـ قتلت **محمدًا**!!

أطفأت صرخةُ **ابن قميئة** الكثيرَ من حماس المسلمين.. وبات جثمان الهزيمة الثقيل الكئيب يجثم فوق الصدور والعقول والنفوس.. وصرخ صارخ:

ـ ألا إن **محمدًا** قد قُتِل، فانكفأنا وانكفأ القوم علينا!!

سرَتْ إشاعة مقتل النبي ﷺ علىٰ أفواه كثيرة.. وانكسرت النفوس كسرًا.. واضمحلت عزائم القوم المؤمنين..

ومر **أنس بن النضر** بقوم من المسلمين فقال:

ـ ما تنتظرون؟!!

فقالوا:

ـ قُتِل رسولُ الله!!

ـ وما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فمُوتوا علىٰ ما مات عليه!!

والتفت **أنس** إلىٰ المشركين.. وقاتلهم بقوة فارس لا يخشىٰ موتًا..

إلا أن الباقين من المسلمين انفعلوا بتقريع **أنس**، فانقضُّوا بكلِّ ما أوتوا

من بقايا عزم . . وبالفعل ، قُتِل من جيش أهل **مكة** أولاد **سفيان بن عويف الكناني** فتركت هذه الاستماتة أثرَها ، ففترت حدَّة **قريش** في محاولة قتل الرسول . .

كان الرسول ﷺ في هذه الأثناء يتابع صعودَه في شِعب الجبل متحاملًا علىٰ **طلحة بن عبيد الله** و**الزبير بن العوام** . . وثاب إليه أصحابُه من كل ناحية وأخذوا يلمون شملهم ويزيلون شعثهم .

وكان جيش **قريش** قد احتلَّ قمة جبل **أحد** . . وأمر النبي ﷺ صحبَه أن يُنزلوا قريشاً من القمة قائلًا :

ـ ليس لهم أن يعلونا .

فحصبوهم بالحجارة حتىٰ أجلوهم عنها .

وبعد أن احتمىٰ المسلمون بصخرة في جبل **أحد** تقدم **أبو سفيان** من سفح الصخرة ونادىٰ ثلاث مرات :

ـ أفي القوم **محمد** ؟

لم يُجِبْه أحدٌ ، ولكن **أبا سفيان** استمر ينادي :

ـ أفي القوم **ابن أبي قحافة** ؟ . . أفي القوم **ابن الخطاب** ؟

ثم قال لأصحابه :

ـ أما هؤلاء فقد قتلوا !

لكن **عمر بن الخطاب** لم يتمالك نفسه وقال:

ـ كذبتَ واللهِ! إن الذين عددتَهم لأحياءٌ كلُّهم.

ثم صاح **أبو سفيان**:

ـ الحربُ سِجالٌ، اُعْلُ **هُبَل**، يومٌ بيومِ **بدر**!!

فقال الرسول ﷺ لعمر:

ـ قم يا عُمرُ فأجبهم، قل: الله أعلىٰ وأجلُّ، لا سواء! قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار!

اندفع **أُبَيّ بن خلف** يبحث عن الرسول ﷺ وهو يقول:

ـ أين **محمد**؟ لا نجوتُ إن نجا!

حتىٰ وصل **أُبَيّ** إلىٰ حيث الرسول ﷺ مع أصحابه.. وحين رأىٰ الرسول، تذكر قوله ﷺ له: «بل أنا قاتلك إن شاء الله».. ارتجف إلا أنه نفض القولَ عن ذهنه وأصر علىٰ اعتزامه قتل الرسول..

وقال القوم:

ـ يا رسولَ الله، أيعطف عليه رجلٌ منّا؟

فقال رسول الله ﷺ:

ـ دعوه.

فلما دنا منه تناول النبي ﷺ الحربة من **حارث بن الصمة**، ثم استقبله وأبصر ترقوته، فطعنه فيها طعنة تدحرج منها عن فرسه مرارا..

فلما رجع **أُبَيٌّ بن خلف** إلىٰ **قريش** وقد خُدش في عنقه خدشًا غير كبير فاحتقن الدم، قال:

ـ قتلني والله **محمد**!!

قالوا له:

ـ والله ذهب فؤادُك، والله إنْ بك مِن بأس..

كان **أُبَيٌّ** مرتعبًا بدون سبب يدركه.. كان صوت **محمد** ﷺ يدوِّي في أذنيه حين توعده من قبل في **مكة**.. كان يشعر أن **محمدًا** لا ينطق عن الهوىٰ فعلًا!.. كان كغيره من أهل **مكة** يشعر بذلك ولا يريد أن يصدقه!!

ـ إنه قد كان قال لي ب **مكة**: «أنا أقتلك» فوالله لو بصق عليّ لقتلني!

وبالفعل، مات وهم راجعون به إلىٰ **مكة**!

بدأت **قريش** تنسحب بعدما اضطُرُّوا للنزول من علىٰ قمة جبل **أحد**..

وظن المسلمون ـ لأول وهلة ـ أن **قريشًا** تنسحب لتهاجم **المدينة** نفسها، فقال النبي ﷺ لـ**علي بن أبي طالب**:

ـ اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون، فإن هم جنَّبوا الخيل

وامتطوا الإبل فإنهم يريدون **مكة**، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة؛ فوالذي نفسي بيده لإن أرادوها لأسيرنَّ إليهم ثم لأُناجزنَّهم فيها.

فخرج **عليٌّ** في آثارهم، فرأهم جنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل واتجهوا إلىٰ **مكة**.

ولما وضعت الحربُ أوزارَها... وقفت **صفية** علىٰ أخيها **حمزة** فوجدته قد بُقِر بطنه، وأُخرِجت كبده، وجُدِع أنفه، وصُلِمَت أذناه، وشُوِّهَ وجهه، فاستغفرتْ له، وما كان منها إلا الصبر والاحتساب، وثبات الجنان، وقوة العقل، ولم تزد علىٰ أن استرجعت، واستودعتْه الله!

وجعلت تقول:

ـ إن ذلك في الله... لقد رضيت بقضاء الله، واللهِ لأصبرنَّ، ولأحتسبنَّ إن شاء الله.

في رثاء **حمزة**، قالت صفية:

– أسائِلَةً أصحابَ أُحْدٍ مخافةً ❊ بناتُ أَبي من أَعْجَمٍ وخبيرِ

فقال الخبيرُ إنَّ حمزةَ قد ثَوَىٰ ❊ وزيرُ رسولِ الله خيرُ وزيرِ

دعاه إلهُ الحقِّ ذو العرش دعوةً ❊ إلىٰ جنّةٍ يحيا بها وسرورِ

فذلك ما كُنَّا نرجِّي ونَرْتَجِي ❁ لحمزةَ يومَ الحشرِ خيرُ مصيرِ

فواللهِ لا أنساكَ ما هَبَّتِ الصَّبَا ❁ بكاءً وحزنًا محضري ومسيري

علىٰ أَسَدِ الله الذي كان مِدْرَهًا ❁ يذودُ عن الإسلام كلَّ كفورِ

فيا ليتَ شِلْوِي عند ذاك وأَعْظُمِي ❁ لدىٰ أَضْبُعٍ تعتادُنِي ونُسُورِ

أقولُ وقد أعلىٰ النَّمِيُّ عشيرَتي ❁ جزىٰ اللهُ خيرًا من أخٍ ونصيرِ

حزن الرسول ﷺ علىٰ مقتل عمه **حمزة**.. كان كمن أصيب بمصيبة اليُتْم مرة أخرىٰ..، وبكىٰ ﷺ بكاءً شديدًا.. ووضعه في القِبْلة، ثم وقف علىٰ جنازته، وانتحب حتىٰ نشجَ من البكاء.. كان أشد ما آلمه ﷺ، ربما أكثر من استشهاد **حمزة** ـ هو التمثيل الذي وقع بجثمانه الطاهر.. وقال:

ـ لن أصاب بمثلك أبدًا، ما وقفت قط موقفًا أغيظ إليَّ من هذا!



٢٥ ـ يهود المدينة

اليهود القاطنون في **المدينة** هم يهود **بني النضير**.. وكان بينهم وبين الرسول ﷺ عهداً.. وهالهم ما رأوا من قوة المسلمين في غزوة **بدر**.. إلا أن ما لحق بالمسلمين من هزيمة في غزوة **أحد** جعلهم يعيدون التفكير.. وتقييم الموقف.. في شأن موقفهم من أتباع الدين الجديد الذين يبغون سحبَ البساط من تحت أرجلهم.. ورأىٰ اليهود أنها فرصتهم لمباغتة المسلمين بالعداء الكامن.. وبدأوا يتواصلون مع المشركين في **مكة** لمحاولة تضييق السوار علىٰ المسلمين والتخلص منهم..

وبالفعل دبر اليهود بالتعاون مع المشركين أَكْمِنةً للمسلمين.. في **الرجيع**.. وبئر **معونة**.. حيث قُتل في هذه الأكمنة سبعون رجلًا من المسلمين..

وقد تألَّم النبي ﷺ لهذه المأساة التي قُتل فيها سبعون من أصحابه تألمًا شديداً.

اجتمع رئيس اليهود: **حُيَيُّ بن أخطب** بهم، وخطب قائلًا:

ـ أرىٰ أن شوكة من يسمون أنفسهم بالمسلمين قد هانت.. وقد آن

أوانا لننكبَّ عليهم انكبابًا!

أيَّد اليهود ذلك، وتداخلت أصواتهم كالزئير، إلا أن **سلام بن مشكم**:

ـ الحذر الحذر.. لا يزال لدىٰ هؤلاء من المقاتلين والعتاد ما ننوء بتحمله.. ولا يزال لديهم قائد يتحلقون حوله!

هز **حيي** رأسه متدبرًا، وحكَّ ذقنه بيده:

ـ ربما كان في حديثك صوابٌ.. إلا إذا اجتززنا رأس قائدهم!

تبادل اليهود نظراتٍ حذرة، فدار **حيي** بعينيه في أعينهم، وصاح بهم حاسمًا:

ـ أيكم يأخذ هذه الرحىٰ فيصعد بها فيلقيها علىٰ رأس **محمد** فيشدخ بها رأسه؟

فقال أشقاهم **عمرو بن جحاش**:

ـ أنا.

فارتعدت فرائص **سلام** وهتف:

ـ لا تفعلوا، فوالله ليُخبَرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه!

فزعق به **حيي**:

ـ ويحك يا **سلام**.. أوتظن كما يزعم أحبارنا أنه نبي آخر الزمان حقًّا

وسيوحىٰ إليه بمكيدتنا؟.. كُفَّ عن هذا الجُبْن ودعنا ننهي أمره وأتباعه ونستعيد سيادتنا في **يثرب**!!

دعا اليهودُ الرسولَ ﷺ إليهم للتشاور حول ما وقع في المكائد، وعما إذا كانوا سيدفعون ديات للقتلىٰ من عدمه..

وجلس النبي ﷺ إلىٰ جنب جدار بيتٍ من بيوتهم وجلس معه **أبو بكر** و**عمر** و**علي** وطائفة من أصحابه.. صعد **عمرو بن جحاش** علىٰ سطح المنزل...

.... نهض النبي ﷺ مسرعًا.. قبل إلقاء الحجر.. وتوجَّه راجعًا إلىٰ **المدينة**.

ما لبث رسول الله ﷺ أن بعث **محمد بن مسلمة** إلىٰ يهود **بني النضير** يقول لهم:

ـ اخرُجوا من **المدينة** ولا تساكنوني بها، وقد أَجَّلْتُكم عشرًا، فمن وجدته بعد ذلك منكم ضربتُ عنقَه.

فلم يجد اليهود مناصًا من الخروج.. هم يعلمون مدىٰ قوة جيش المسلمين.. يعلمون ذلك رغم ما أصابه من تصدعات في الفترة الماضية.. ولئن أراد المسلمون إجلاءهم عن **المدينة** بالقوة سيقدرون.. فأقاموا أيامًا

يتجهزون للرحيل والخروج من **المدينة**.. غير أن رئيس المنافقين **عبد الله بن أبيّ بن سلول** بعث إليهم:

ـ أن اثبتوا وتمنَّعوا ولا تخرجوا من دياركم؛ فإنَّ معي ألفيْ رجل يدخلون معكم حصونكم، يدافعون عنكم ويموتون دونكم.

عادت لليهود ثقتهم.. وطمع رئيسُهم **حيي بن أخطب** فيما قاله رئيس المنافقين.. فبعثوا إلى **محمد** ﷺ يقولون له:

ـ إنّا لن نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.



٢٦ ـ غزوة بني النضير

حين بلغه جوابُ **حيي بن أخطب** كبَّر الرسول ﷺ وكبَّر المسلمون معه، واتخذ قرارَه.. لابد من إجلاء يهود **بني النضير** عن المدينة بالقوة المطلقة.. وأعدَّ ﷺ والمسلمون العُدَّةَ للخروج إليهم.. واستعمل على **المدينة عبد الله بن أم مكتوم**.. وسار إليهم يحمل اللواء **عليُّ بن أبي طالب**..

فلما وصل إليهم فرض عليهم الحصار.. فالتجأ اليهود إلى حصونهم، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونًا لهم في ذلك.. فأمر الرسول ﷺ بقطعها وتحريقها..

ولقد أثار مشهد قطع النخيل رعب المنافقين، ففروا هاربين خلف رئيسهم **ابن سلول**..

لم يطُلِ الحصار طويلًا.. إنما دام ست ليال فقط، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فانهزموا وتهيأوا للاستسلام وإلقاء السلاح.. فأرسلوا إلى **محمد** ﷺ:

ـ نحن نخرج عن **المدينة**.

فوافق على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذراريهم، وأنّ لهم ما حملت الإبل

إلا السلاح ، فوافقوا على ذلك .

وأثناء اعتزامهم الخروج هتف بهم **حيي ابن أخطب**:

ـ اتركوا لهؤلاء بيوتكم مخروبة مكسرة.. لا تتركوها لهم سليمة يهنأون بها.. انزعوا وحطموا ما يمكن أن يتمتعوا به فيها!

فقاموا بتخريب بيوتهم بأيديهم، ليحملوا معهم الأبواب والشبابيك والجذوع؛ حتى لا يأخذها المسلمون.. ثم حملوا النساء والصبيان على ستمائة بعير ، وأسلم منهم رجلان فقط ، وذهبت طائفة منهم إلى الشام .



٢٧ ـ الأحزاب

بعد أن خرج يهودُ **بني النضير** من **المدينة** إلىٰ **خيبر**، بعد الهزيمة من المسلمين، اجتمعوا للمِّ شتات جراحاتهم..

السوار الإسلامي يحيط بهم، يخنقهم.. ومرارة الهزيمة الخانقة تقتلع أمعاءَهم..

لابد من الانتقام من أولئك المسلمين!.. المسلمون الذين أذلوهم شرَّ مذلَّةٍ وأروهم لياليَ سوداء تحت حصار عصيب.. وبدأوا في تدبر الأمور تحت زعامة **حُيي بن أخطب**..

ـ وكيف ننتقم من **محمد** وأتباعه بعدما حلَّ بنا من ضعف بفعل الحصار الأسود؟!

قال **حيي**، بينما **سلام بن حقيق** يتابع:

ـ نحتاج إلىٰ من يعيننا عليهم!!

ـ ترون من ينصرنا ضد هؤلاء؟

بعد برهة تفكير أجاب **هَوْذَة بن قيس**:

ـ القبائل العربية في **مكة** وما حولها.. هؤلاء القوم الذين فر أتباع **محمد** منهم إلىٰ **يثرب** وانشقوا عن دينهم وعن لواء زعامتهم..

القوم موتورون أكثر منَّا.. الذين ذاقوا هزيمةً أمرَّ علىٰ يد **محمد** وأصحابه في **بدر**، ولم يشفوا غليلهم في **أحد**!!

ابتسمت عينا **حيي**:

ـ إذن هو إضرام النار في حطبهم.. نار الكراهية والانتقام!

ضحك **أبي عمار**:

ـ ومن منا أقدر علىٰ ذلك.. نبدو وكأننا خُلقنا من أجل هذا!

وقف **حيي** ورفع يده قابضًا الهواء:

ـ إذن سنخاطب القبائل العربية.. ونجتمع مهم ضد **محمد** وأصحابه في **يثرب**.. ستكون النهاية يا **محمد**.. نهايتك ونهاية دينك بحق!

وكوَّنوا لهذا الغرض وفدًا يتكون من: **حيي بن أخطب**، و**سلام بن أبي الحقيق**، و**كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق**، و**هوذة بن قيس**، و**أبي عمار**.

ـ إن دينَكم خيرٌ من دين **محمد**، وأنتم أولىٰ بالحق منه!

هكذا قال **حُيي بن أخطب** لمشركي **قريش**..

فقد خرج وفدٌ يتكوَّن من عشرين رجلًا من زعماء اليهود وسادات **بني النضير** إلىٰ **قريش** بـ**مكة**، يحرضونهم.. أقنعوهم بوحدة المصلحة.. بوحدة الضغينة.. بوحدة الكراهية.. أن لابد من غزو **محمدٍ**.. وأتباع **محمد**..

وأكد **هوذة بن قيس**:

ـ نحن معكم وبين ظهرانيكم.. بالسيف.. والعتاد.. وكل الموالاة!

فقال **أبو سفيان**:

ـ ونحن معكم.. اجمعوا باقي قبائل العرب.. ولننقضَّ علىٰ **يثرب** كالغمامة العاتية.. ولنمحُ هذا الدين ورجاله وقائده!

ثم خرج هذا الوفد إلىٰ **غطفان**، فدعاهم إلىٰ ما دعا إليه **قريشًا**، فاستجابوا لذلك..

وقد أبرم الوفدُ اليهودي مع زعماء أعراب **غطفان** اتفاقيةً ضد المسلمين، وكان أهمُّ بنود هذا الاتفاق هو:

ـ أن تكون قوّة **غطفان** في جيش الاتحاد هذا: ستة آلاف مقاتل.

ـ أن يدفع اليهود لقبائل **غطفان** ـ مقابل ذلك ـ كلَّ تمرٍ **خيبر** لسنة واحدة.

ثم طاف الوفدُ بنارِه السوداء فأشعلها في قبائل العرب.. وتحزبت الأحزاب تحزبًا ضد المسلمين.. ورسول المسلمين..

زحفت الجحافلُ العاتية صوبَ **المدينة**.. خرجت من الجنوب **قريش** من **كنانة** في أربعة آلاف يقودهم **أبو سفيان** حتىٰ نزلوا وادي العقيق.. ووافاهم **بنو سليم** بمر **الظهران** وهم سبعمائة يقودهم **سفيان بن عبد**

شمس، وخرجت من الشرق **بنو أسد** يقودهم **طليحة بن خويلد**، وقبائل **غطفان**..

ثم اتجهت هذه الأحزابُ، وتحرَّكت نحو **المدينة** علىٰ ميعاد كانت قد تعاقدت عليه. وبعد أيام، تجمَّعَ حول **المدينة** جيشٌ يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل: أربعة آلاف من **قريش** وأحلافها **كنانة**، وستة آلاف من **غطفان** وأحلافها **بني أسد** و**سليم**.

كان المسلمون علىٰ علمٍ تامٍّ بكل ما يجري بين الوفد اليهودي وبين **قريش** أولًا، ثم **غطفان** ثانيًا.. وأحسوا بجسامة الخطر الآتي.. الخطر الذي يكاد يلتهم التجمع الإسلامي الوليد في **المدينة**..

ودعا الرسول ﷺ إلىٰ اجتماع عاجل حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين والأنصار.. فلابد من تدارك الأمر.. والأخذ بالأسباب.. لقد صار الجميع ضد الإسلام.. راية الحق باتت ترفرف وحيدةً.. وآلاف الأيدي تهم بانتزاعها بل وحرقها..

وطرح **سلمان الفارسي** علىٰ الرسولِ ﷺ فكرته:

ـ يا رسولَ الله، إنَّا إذا كنَّا بأرض **فارس** وتخوَّفْنا الخيلَ، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟

فأعجب الرسول ﷺ والمسلمون بالفكرة الجديدة المختلفة.. فالحرب خدعة.. ولابد من مفاجأة هذا العدو المتحزب.. واتخاذ الدفاع الحصين

أمامه هو الأَوْلَىٰ الآن.. الخندق سيمنعهم.. سيشل تفكيرهم.. سيكبل تحركاتهم.. سيعرقل أفكارهم!

كان لابد من تحديد مكان حفر الخندق.. واختار الرسول ﷺ للمسلمين مكانًا تتوافر فيه الحمايةُ للجيش.. فاختار عليه الصلاة والسلام أن يجعل "جبل سلع" خلف ظهره، ويخندق من "المذاد" إلىٰ "جبل ذباب" **أكمة صغيرة في المدينة يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع** إلىٰ "راتج" **حصن من حصون المدينة لأناس من اليهود**، وقد استفاد الرسولُ ﷺ من مناعة جبل **سلع وهو أشهر جبال المدينة** في حماية ظهور الصحابة.

كان اختيار تلك المواقع موفَّقًا؛ لأن شمال **المدينة** هو الجانب المكشوف أمام العدو، والذي يستطيع منه دخولَ **المدينة** وتهديدها، أما الجوانب الأخرىٰ فهي حصينة منيعة، تقف عقبةً أمام أي هجوم يقوم به الأعداء، فكانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع، وكانت "حرة واقم" من جهة الشرق، و"حرة الوبرة" من جهة الغرب، تقومان مقام حصن طبيعي، وكانت آطام **بني قريظة** في الجنوب الشرقي كفيلة بتأمين ظهر المسلمين، إذ كان بين الرسولِ و**بني قريظة عهدٌ** ألَّا يمالئوا عليه أحدًا، ولا يناصروا عدوًّا ضده..



٢٨ ـ الخندق

بدأ حفرُ الخندق . . تحت وطأة البرد القارص . . والفقر القاسي وقلة الزاد والعتاد . . والعدو المنتظر قُدومه في أي لحظة . . كان الصحابة يحفرون بأيديهم ، وينقلون التراب على ظهورهم . . التراب ثقيل لكن العزيمة أذابت ثقله . . قد قسَّم الرسولُ ﷺ أعمالَ حفر الخندق بين الصحابة ، كل أربعين ذراعًا لعشرة من الصحابة ، ووكل بكل جانب جماعة يحفرون فيه . .

وقد اشتد الجوع حتى التهم أمعاءَ المسلمين . . وربط كل منهم حجرًا على بطنه . . ولم يكن الرسول ﷺ بأقل جوعاً فلم يربط على بطنه حجرًا ، بل حجرين!

كما شارك الرسولُ الصحابةَ في حفر الخندق ، وكان يرتجز بكلمات **ابن رواحة** وهو ينقل التراب ، ويقول:

- واللهِ لولا اللهُ ما اهتدينا ❁ ولا تصدَّقنا ولا صلَّيْنا

فأنزلنْ سكينةً علينا ❁ وثبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقيْنا

إن الأعادي قد بَغَوْا علينا ❁ وإن أرادوا فتنةً أَبَيْنَا

ثم يمد صوته بآخرها . وكان الصحابة يقولون يوم الخندق:

- نحن الذين بايعوا **محمدًا** ❁ على الإسلام ما بقينا أبدًا

والنبي ﷺ يقول:

ــ اللهــم إنَّ الخيـرَ خيـرُ الآخـرة ❁ فـــاغفر للأنصـــار والمهـــاجرة

وبعزيمة تقهر الحجر.. انتهىٰ حفر خندق الأمل.

أقبلت **قريش** و**كنانة** في أربعة آلاف مقاتل، حتىٰ نزلوا بمجتمع **الأسيال** من **رومة** بين **الجرف** و**زعابة**، وأقبلت **غطفان** و**بنو أسد** و**سليم** في ستة آلاف حتىٰ نزلوا بذَنَب نَقَمَىٰ إلىٰ جانب **أحد**..

أما المنافقون فقد انسحبوا من الجيش، وزاد خوفُهم، حتىٰ قال **معتب بن قشير الضبيعي الأوسي**:

ـ كان **محمدٌ** يعدنا أن نأكل كنوز **كسرىٰ** و**قيصر**، وأحدنا لا يأمن علىٰ نفسه أن يذهب إلىٰ الغائط!!

وطلب البعضُ الآخرُ الإذنَ لهم بالرجوع إلىٰ بيوتهم بحجة أنها عورة!!.. وما هي بعورة!!

وخرج الرسولُ ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعلوا ظهورَهم إلىٰ جبل **سِلع** فتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الأحزاب، وكان شعارهم: «هُم لا ينصرون».. واستخلف علىٰ المدينة **ابن أم مكتوم**.. بينما جمع ﷺ النساء والأطفال في حصن منيع في آطام **المدينة**.

تقدم المشركون لمهاجمةِ المسلمين واقتحام **المدينة** . . . . . وجدوا خندقًا عريضًا يحول بينهم وبينها!..

مع الوقت تعاظم غيظُهم وجنونهم.. وراحوا يدورون حوله بخيولهم كالأسد الهائج يتحيَّن الفرصة للانقضاض على فريسته.. فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين..

كانت فكرة الخندق غير معروفة وغير مفهومة لهم كعرب، لذا شلَّت تفكيرهم وأصابتهم بالحنق الشديد!

كانت الفكرة الوحيدة أن يحاول المشركون ردمَ الخندق بالرمال، إلا أنَّ المسلمين ـ على الجانب الآخر ـ كانوا يقذفونهم بالنبال، فيتراجعون مرةً تلو المرة..

يمر الوقت الرتيب.. على جانبي الخندق.. وفرسان **قريش** يزمجرون غيظًا.. وألمًا.. يقفون على **الخندق**.. يروحون بخيولهم جيئة وذهابًا.. دون إيجاد ثغرة حقيقية للعبور إلى **محمد** ﷺ وأصحابه على الجانب الآخر..

الخندق!!.. يالها من فكرة خارقة عقم عنها عقلُ إبليسهم!!

واستمر الحصار المرير.. على الطرفين.. وأخذت الخيول تفتش عن حل.. عن ثغرة.. لابد من حل.. لابد من ثغرة..

وخرج منهم جماعةٌ فمروا بمنازل حلفائهم وبني عمومتهم **بني كنانة**

فقالوا يستثيرون حميتهم للقتال:

ـ تهيئوا يا **بني كنانة** للحرب، فستعلمون من الفرسان اليوم!

ثم عادوا بخيولهم، حتىٰ وقفوا علىٰ الخندق، فلما رأوه قالوا:

ـ والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها!!

أخيراً، تراءت لهم ثغرةٌ ما.. مكانًا ضيقًا من الخندق.. فاقتحموه..

وخرج **عليٌّ بن أبي طالب** في نفر من المسلمين ومنعوهم بقوةٍ من عبور الثغرة فارتدت خيولهم....

وبرز **عمرو بن عبد ود** من جيش المشركين بالقرب من المنطقة الضيقة من الخندق، وقال:

ـ من يبارز؟

فبرز له **علي بن أبي طالب** فقال له:

ـ يا **عمرو**، إنك كنت عاهدت الله ألا يدْعوك رجل من **قريش** إلىٰ إحدىٰ خلتين إلا أخذتها منه!

ـ أجل!

ـ فإني أدعوك إلىٰ الله وإلىٰ رسوله وإلىٰ الإسلام.

ـ لا حاجة لي بذلك.

ـ فإني أدعوك إلىٰ النزال.

ـ لم يا ابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك!!

ـ لكني والله أحب أن أقتلك!!

نزل **عمرو** عن فرسه.. وبحسم استل سيفه، ومال علىٰ الفرس... فعقره وضرب وجهه!.. ومن بين دماء الفرس أقبل علىٰ **علي** فتنازلا وتجاولا..

وتقارع السيفانِ بعنفٍ.. وغيظ مِن قِبَل **عمرو**.. وهدوء من جانب **علي**.. وهوىٰ **عمرو** بالسيف نحو عنق **علي** غيرَ مُكترث.. إلا أنّ **عليًّا** استقبل الضربة القاصمة علىٰ سيف.. وبقدمه ركل **عَمْرًا** في صدره فتراجع متألِّمًا.. ومستغلًّا لحظة الألم، وجه إليه **عليٌّ** ضربةً صاعقة.. وسقط **عمرو** هالكًا..

وخرجت خيل المشركين منهزمةً بعيدًا عن الخندق هاربة.

ولم تتوقف محاولات المشركين ـ في الأيام التالية ـ لاقتحام الخندق، أو لبناء الطرق فيه.. لكن المسلمين كافحوهم مكافحةً شديدةً، ورشقوهم بالنبل، وناضلوهم أشد النضال، حتىٰ فشل المشركون في محاولاتهم.

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فاتت بعض الصلوات عن الرسولِ ﷺ والمسلمين.. فقد وَجَّهَ المشركون كتيبةً غليظةً نحو مقر الرسول ﷺ، فقاتلهم المسلمون يومًا إلىٰ الليل، فلما حانت صلاة

العصر دنت كتيبةٌ ، فلم يقدر الرسولُ ﷺ ولا أحدٌ من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلوا ، وشغل بهم الرسول فلم يصل العصر ، ولم تنصرف الكتيبة إلا مع الليل . . فأحزن المسلمين فواتُ الصلوات . . فقال الرسولُ ﷺ :

ـ ملأ الله عليهم بيوتَهم وقبورَهم نارًا ، كما شغلونا عن الصلاة الوسطىٰ حتىٰ غابت الشمس .

وقد دامت محاولاتُ العبور من المشركين ، والمكافحةُ المتواصلة من المسلمين أيامًا ، إلا أن الخندق لمّا كان حائلًا بين الجيشين لم يجرِ بينهم قتالٌ مباشرٌ وحربٌ داميةٌ ، بل اقتصروا علىٰ المراماة والمناضلة .

وفي هذه المراماة قُتل رجالٌ من الجيشين : ستة من المسلمين وعشرة من المشركين ، بينما كان قُتل واحد أو اثنان منهم بالسيف .



٢٩ ـ صفية

كبير **بني النضير حُيي بن أخطب** علىٰ باب دار **كَعب بن أسد القرظي** ، سيد **بني قريظة** ، وصاحب عَقدهم وعَهدهم ، وكان قد عاقد الرسولَ ﷺ علىٰ أن ينصره إذا أصابته حرب . . ضرب عليه **حُيي** البابَ . .

فتح **كعبٌ** بابَه ، وما أنْ أبصر **حُيَيًّا** حتىٰ أغلقه! . . فتكلم **حُيَي** من خلف الباب :

ـ ألا تبغي زيارتي يا رجل ؟ . . ألسنا أبناء دين واحد ؟!!

أجابه الصمت المطبقُ ، فواصل :

ـ ينبغي أن نتحدث بالداخل . . أنت كبير قومك وأنا كبير قومي . . وعندما يتحدث الكبار لا ينبغي لأحد أن يتسمَّع لكلامهم!

هتف **كعب** من الداخل :

ـ اغرب عن المكان يا **حيي** . لا شأن لي بحربك ولا ويلاتك!

ـ إني قد جئتك يا **كعب** بعزِّ الدهر وببحرٍ طامٍ ، جئتك بـ**قريش** علىٰ قادتها وسادتها ، حتىٰ أنزلتهم بمجمع الأسيال من **رومة** ، وبـ**غطفان** علىٰ قادتها وسادتها حتىٰ أنزلتهم بذنب نَقَمَىٰ إلىٰ جانب **أُحُد** ، قد عاهدوني وعاقدوني علىٰ ألا يبرحوا حتىٰ نستأصل

محمدًا ومن معه!!

ـ جئتني والله بذُلِّ الدهر وبجهامٍ قد اهراق ماؤه، فهو يُرعِد ويُبْرِق، ليس فيه شيء، ويحك يا **حيي**! فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من **محمدٍ** إلا صدقًا ووفاءً!

ـ ما يريد **محمد** وصحبه بنا جميعًا ـ معشر اليهود إلا سوءًا.. ما إن ينتهي من صراعه مع بني قومه في **مكة** صُلحًا أو قتلًا، حتىٰ ينقلب علينا جميعًا.. لن يفرق بين من عاهد ومن لم يعاهد.. الرجل جاء بدين جديد يأمل له أن يسود شبه جزيرة العرب.. وربما ما حولها!.. لن يترك عليها من لا يتبع دينه.. فإما أن ينطوي تحت لوائه ويقر بـ**محمد** سيدًا عليه، وإما السيف يجز عنقه!

وصلت **حيي** ارتجافة **كعب** رغم الباب المقفول بينهما!!

انفتح باب **كعب**، وقال سيد **بني قريظة** بصوت يصبغه توتر:

ـ لئن رجعت **قريش** و**غطفان**، ولم يصيبوا **محمدًا** لأدخلنَّ معك في حصنك، حتىٰ يصيبني ما أصابك!

علت ابتسامة منتشية شفتيْ **حيي**:

ـ فليكن يا ابنَ ديني.. أهلا بك في حِزبنا!

واستعدت **بنو قريظة** للمشاركة مع الأحزاب، فأرسلت إلىٰ جيوشها عشرين بعيرًا كانت محملة تمرًا وشعيرًا وتينًا لتمدهم بها وتقويهم علىٰ

البقاء..

وكان هذا إيذاناً بغدر **بني قريظة**.. وبأن جميع اليهود قد اجتمعوا ضد الرسول ﷺ وأصحابه في المدينة.. كتفاً بكتف مع مشركي **مكة**!

وصلت أنباء نقض **بني قريظة** للعهد ودخول جيشهم في الحصار إلىٰ الرسول ﷺ.. وكان علىٰ الرسول كقائد للجيش أن يبث في جنوده الثبات والحزم.. إذ لم يعد أحد يساند المسلمين الآن، وانهار آخر حصن مساند بخيانة **بني قريظة**.. وكفىٰ بالله سندًا ونصيرًا!

وأرسل الرسولُ ﷺ سلمة بن أسلم في مئتي رجل، و**زيد بن حارثة** في ثلاثمئة رجل، يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير ليرهبوا **بني قريظة**..

ونجح المسلمون في أخذ العشرين بعيرًا التي أرسلها **بنو قريظة** كغنيمة لهم..

إلا أن جيوش الأحزاب قد زادت في تشديد الحصار علىٰ المسلمين بعد انضمام **بني قريظة** إليها.. واشتد الكرب علىٰ المسلمين.. وبات الحصار وكأنه لن ينتهي.. وباتت الضغينة التي تحرك المشركين كنار موقدة لا تفتأ تأكل من يقترب منها، وتقوي حامليها علىٰ الصمود في حصارهم حول الخندق..

وتزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتىٰ الصباح..

وحاول **خالد بن الوليد** مع مجموعة من فرسان **قريش** أن يقتحم الخندق علىٰ المسلمين في ناحية ضيقة منه.. لكن **أسيد بن حضير** في مئتين من الصحابة يراقبون تحركاتهم، وقد حصلت مناوشات بين الطرفين..

جعل الرسول نساءه وعمته **صفية** وطائفة من نساء المسلمين في حصنٍ لـ**حسان بن ثابت** وَرِثَه عن آبائه، وكان من أمنع حصون **المدينة** مناعةً وأبعدها منالًا.

وكان المسلمون يرابطون علىٰ حواف الخندق في مواجهة **قريش** وأحلافها، وقد شُغِلوا عن النساء والذراري بمنازلة العدو.

وكانت **صفية** وسط النساء في الحصن متحفزة لأي عدو يهاجمهنَّ.. فهي تدرك جيدًا الموقفَ المتأزم للمسلمين عند الخندق، والحصار الغاشم الذي يتعرضون له.. وتعلم أن تجمُّعَ النساء في هذا الحصن بدون حماية لهو فرصة ذهبية لمن يريد الهجوم لسبي هؤلاء النساء.. لذا انتوت **صفية** أن تكون هي حامية الحصن.. فهي قد حملت سيفًا وقاتلت في **أحد**!.. ألآ أنه يعوزها السيفُ الآن.. فلا سيفَ في الحصن.. جميع السيوف في أغمدة الرجال المتأهبين للقتال علىٰ حواف الخندق!

وقد أبصرت **صفية** شبحًا يتحرك في عتمة الفجر، فأرهفت له السمعَ، وأحدَّتْ إليه البصر.. فإذا هو يهوديٌّ أقبل علىٰ الحصن، وجعل يُطيف به متجسِّسًا أخبارَه ومَن فيه، فأدركت أنه عينٌ لبني قومه جاء ليعلم أفي

الحصن رجال يدافعون عمن فيه، أم أنه لا يضم بين جدرانه غير النساء والأطفال.!

كان من يهود **بني قريظة**.. فاستدعت **حسان بن ثابت** وقالت له:

ـ يا **حسان**، إن هذا اليهودي يطوف بالحصن كما ترىٰ، ولا آمَنَهُ أنْ يدلَّ علىٰ عوراتنا مَنْ وراءنا من يهود، فانزِلْ إليه فاقْتُلْه.

ـ يغفر الله لك يا ابنة **عبد المطلب!** والله لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا! لو كان ذلك فيَّ كنتُ مع رسول الله ﷺ!

إذن فقد حانت لحظةُ **صفية**.. لا ريب.. فبادرت إلىٰ خمارها فلفته علىٰ رأسها، وعمدت إلىٰ ثيابها فشدتها علىٰ وسطها، وأخذت عمودًا علىٰ عاتقها، ونزلت إلىٰ باب الحصن فشقته في أناةٍ وحِذق، وجعلت ترقب من خلاله اليهوديَّ في يقظة وحذر، حتىٰ إذا أيقنت أنه غَدَا في موقف يمكِّنها منه...

لم يكن العمود بثقل السيف.. سوف تقاتل **صفية** حتىٰ آخر رمق.. فالحصن كله صار في رقبتها وعهدتها..

واندفعت **صفية** نحو اليهودي.. وضربته بالعمود علىٰ رأسه فطرحته أرضًا... ثم عززت الضربة الأول بثانية وثالثة حتىٰ أجهزت عليه، وأخمدت أنفاسه بين جنبيه..

وقالت لـ**حسان**:

ـ قم فاطرح رأسه على اليهود، وهم أسفل الحصن!

ـ والله ما ذاك.

هنا عادت **صفية** إلى اليهودي الميت، فاحتزت رأسه بسكين كانت معها، وقذفت بالرأس من أعلى الحصن...

فطفق يتدحرج على سفوحه حتى استقر بين أيدي اليهود الذين كانوا يتربصون في أسفله، فلما رأى اليهود رأس صاحبهم؛ قال بعضهم لبعض:

ـ قد علمنا أنَّ **محمدًا** لم يكن ليترك النساء والأطفال من غير حُماة...

ثم عادوا أدراجهم...



٣٠ ـ الحرب خدعة

حاول الرسول ﷺ أن يخفِّف من وطأة الضغط علىٰ أصحابه، بتنحية حزبٍ من الأحزاب ضدهم.. كانت الفكرة: أن يتفاوض مع قبيلة **غطفان**، لأنه كان يعلم أن هؤلاء تحديداً لم يدخلوا المعركة إلا بغرض اقتباس شيء من أموال **المدينة**.. أما بقية الأحزاب العربية واليهود فغرضهم استعادة سيطرتهم الدينية والدنيوية علىٰ كلٍّ من **قريش** و**المدينة** علىٰ الترتيب.

وبدأ ﷺ تواصُلَه مع قادة **غطفان**، وعرض عليهم الصُّلح، فاستجاب القائدان: **عيينة بن حصن الفزاري الغطفاني**، و**الحارث بن عوف المري الغطفاني**، وحضرا مع بعض أعوانهما إلىٰ مقر قيادة الرسولِ ﷺ، واجتمعا به وراء الخندق مُستخفين دون أن يعلم بهما أحد، وشرع الرسولُ ﷺ في مفاوضتهم، وكانت المفاوضة تدور حول عرض تقدم به الرسولُ يدعو فيه إلىٰ عقد صلح منفرد بينه وبين **غطفان**، وأهم البنود التي جاءت في هذه الاتفاقية المقترحة:

❋ عقد صلح منفرد بين المسلمين و**غطفان** الموجودة ضمن جيوش الأحزاب.

❋ تتوقفُ **غطفانُ** عن القيام بأي عمل حربي ضد المسلمين، وخاصة في هذه الفترة.

* تفكُ **غطفان** الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها عائدة إلىٰ بلادها.

* يدفعُ المسلمون لـ**غطفان** مقابل ذلك ثُلُثَ ثمار **المدينة** كلِّها من مختلف الأنواع، وذلك لسنة واحدة.، فقد قال الرسولُ ﷺ لقائدي **غطفان**:

ـ أرأيت إن جعلت لكم ثلثَ تمر **المدينة** ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب؟

قالا:

ـ تعطينا نصفَ تمر **المدينة**..

فأبىٰ الرسولُ ﷺ أن يزيدهما علىٰ الثلث، فرضيا بذلك.

وقَبْلَ إتمام اتفاق الصلح مع **غطفان**، شاور الرسولُ ﷺ الصحابةَ في هذا الأمر، فقال **السَّعدان: سعدُ بن معاذ**، و**سعدُ بن عبادة**:

ـ يا رسولَ الله، أمرًا تحبُّه فنصنعه؟ أم شيئًا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيئا تصنعه لنا؟

ـ بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رَمَتْكُم عن قوسٍ واحدة، وكَالَبُوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلىٰ أمر ما.

فقال له **سعد بن معاذ**:

ـ يا رسولَ الله، قد كُنَّا وهؤلاءِ على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قِرًى أو بَيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم!!

فقال الرسولُ ﷺ:

ـ أنتَ وذاك.

فتناول **سعد بن معاذ** الصحيفة التي دُوِّن بها اتفاق الصلح، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال:

ـ ليجهدوا علينا.

وقد سُرَّ الرسولُ ﷺ بذلك وعاد إلى **عيينة** و**الحارث**، وقال لهما:

ـ انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف.

واستمر الحصارُ المرير ناحية الخندق.. وبات المسلمون في ضيق شديد من أمرهم.. عاجزين عن قضاء حوائجهم.. فتوجهوا إلى الرسول ﷺ وقالوا:

ـ يا رسول الله، هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر!!

ـ نعم. اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا.

كما دعا الرسولُ ﷺ علىٰ الأحزاب فقال:

ـ اللهم مُنزلَ الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم.

ذهب رجلٌ من **غطفان** هو **نعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني** إلىٰ الرسولِ ﷺ ليعلن إسلامه، وقال له:

ـ يا رسول الله، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمُرْنِي بما شئت.

هنا سنحت فرصةٌ لخداع الأعداء.. فلابد ألَّا يعلم أحدٌ بإسلام **نُعيم**.. فقال له الرسولُ ﷺ:

ـ إنما أنت فينا رجلٌ واحد، فخذِّلْ عنَّا إن استطعتَ، فإنَّ الحَرب خَدْعة.

ذهب **نعيم** إلىٰ **بني قريظة** ـ وكان عشيرًا لهم في الجاهلية ـ وقد أخفىٰ إسلامَه وأتقن مكيدتَه، فدخل عليهم وقال:

ـ قد عرفتم وُدِّي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم.

قالوا:

ـ صدقتَ.

ـ فإن **قريشًا** ليسوا مثلكم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلىٰ غيره، وإن **قريشًا** و**غطفان** قد جاؤوا لحرب **محمد** وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم و**محمدًا** فانتقم منكم!!

قالوا:

ـ فما العمل يا **نعيم**؟

ـ لا تقاتلوا معهم حتىٰ يعطوكم رهائن!!

ـ لقد أشرتَ بالرأي!!

مضىٰ **نعيم** إلىٰ **قريش**، وقال لهم:

ـ تعلمون وُدِّي لكم ونصحي لكم؟

قالوا:

ـ نعم!

ـ إنَّ يهودَ قد ندموا علىٰ ما كان منهم من نقض عهد **محمد** وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم!!

ثم ذهب إلىٰ **غطفان**، فقال لهم مثل ذلك.

بعثت **قريش** و**غطفان** كتاباً إلىٰ اليهود: «إنا لسنا بأرضِ مقامٍ، وقد هلك الكراع والخف، فانهضوا بنا حتىٰ نناجز **محمدًا**»، فأرسل إليهم اليهود: «إن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب مَن قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتىٰ تبعثوا إلينا رهائن»، فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت **قريش** و**غطفان**:

ـ صدقَكم والله **نعيم**!!

فبعثوا إلىٰ اليهود: «إنا والله لا نرسل إليكم أحدًا، فاخرجوا معنا حتىٰ نناجز **محمدًا**»

فقالت **بنو قريظة**:

ـ صدقكم والله **نعيم**!!

فدبَّت الفُرقة بين الطرفين.. وبات الشك هو ديدنهم.. وبدأت أحزابهم تتشقق من داخلها..

أرسل الله ريحًا شديدة البرودة.. قلعت الأوتاد.. أطفأت النيران.. وزُلْزِل الأحزابُ زلزالًا شديدًا.. وراحوا يَجْرُون في كل اتجاه.. وتأكدوا أن حصارهم لابد أن ينفضّ.. وكان الرسولُ ﷺ يقول:

ـ لا إله إلا الله وحده، أعزَّ جندَه، ونصر عبدَه، وغلب الأحزابَ وحدَه، فلا شيء بعده.

وبالفعل بدأ انسحاب الأحزاب حزبًا حزبًا..

وقال الرسول ﷺ لأصحابه:

ـ لن تغزوكم **قريش** بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم!



٣١ ـ حصار بني قريظة

إن أشدَّ ما باغَتَ المسلمين في يوم الخندق كان غدر **بني قريظة**.. فقد كان المسلمون يظنون أن ظهورهم في مأمن، ما داموا على عهد مع يهود **بني قريظة**.. إلا أن نقض هؤلاء للعهد جعل المسلمين في حرج شديد، لولا أنْ منَّ **الله** على رسوله بالريح العاصفة، وبالخدعة المتقنة التي تشتت بها الأحزاب جميعًا..

لذا، وبعدما انفكَّ حصار الخندق على الفور، كان على الرسول ﷺ أن يستأصل الخطر اليهودي الغادر من قلب **المدينة** استئصالًا.. فأذَّن الرسولُ ﷺ في الناس:

ـ من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلينَّ العصرَ إلا في **بني قريظة**.

وبالفعل، تحرك الرسول ﷺ وأصحابه صَوْبَ **بني قريظة**، واستعمل على المدينة **ابن أم مكتوم**، وأعطى الراية **علي بن أبي طالب**، وقدّمه إلى **بني قريظة**..

ضرب المسلمون الحصارَ على **بني قريظة** خمسًا وعشرين ليلة..

ولما اشتدَّ الحصار وعظُم البلاء على **بني قريظة**، أرادوا الاستسلام والنزول على أن يحكِّم الرسولُ ﷺ فيهم **سعدَ بنَ معاذ**، ورأوا أنه سيرأف

بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه **الأوس**..

فجيءَ بـ**سعد** محمولًا ؛ لأنه كان قد أصابه سهم في ذراعه يوم الخندق.. وفاجأ حُكْمُه يهودَ **بنو قريظة**.. إذ قضىٰ بأن تُقتل المقاتلة، وأن تُسبىٰ النساء والذرية، وأن تُقسم أموالهم، فأقرّه الرسولُ ﷺ، وقال:

ـ قضيت بحكم الله.

وجيء برئيس **بني قريظة كعب بن أسد**، وقال الرسولُ ﷺ:

ـ **كعب بن أسد**؟

ـ نعم يا **أبا القاسم**..

ـ ما انتفعتم بنصح **ابن خراش** لكم، وكان مصدِّقًا بي، أما أمركم باتباعي، وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام؟

ـ بلىٰ والتوراة يا **أبا القاسم**، ولولا أن تعيِّرني يهودٌ بالجزع من السيف لاتبعتُك، ولكنِّي علىٰ دين يهود!!

فأمر الرسولُ ﷺ بضرب عنقه فضُربت.

ونُفِّذ حكم الإعدام في أربعمائة في سوق **المدينة**، حيث حفرت أخاديد وقتلوا فيها علىٰ مجموعات، وقد نجت مجموعة قليلة جدًّا بسبب وفائها للعهد ودخولها في الإسلام، وقُسمت أموالهم وذراريهم علىٰ المسلمين.



٣٢ ـ من أجل العمرة

قرَّر الرسول ﷺ المسيرَ إلىٰ **مكة** لأداء العمرة..

إلا أنه كان يدرك أنَّ الخطر جِدٌّ شديد.. وأن **قريشًا** قد تتعرض له وأصحابه بالقتال لمنعه عن البيت الحرام.. إلا أنه ﷺ قد عقد العزم علىٰ أداء العمرة هذا العام.. لا يريد الرسول ﷺ أن يشعر أصحابُه أنهم ممنوعون من زيارة البيت الحرام.. وأن هجرتهم هي محبسهم عمَّا يحبُّون.. فإن **مكة** كانت وستظل هي دارهم، والبيت الحرام دومًا سيظل مبتغاهم الأثير..

أذّن الرسول ﷺ في أصحابه بالرحيل إلىٰ **مكة**، وسار النبي ﷺ بألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، وكان معهم سلاح السفر لأنهم يرغبون في السلام ولا يريدون قتالَ المشركين، ولبسوا ملابسَ الإحرام ليؤكدوا لـ**قريش** أنهم يريدون العمرة ولا يقصدون الحرب.. وما حملوا من سيوف إنما كان للحماية مما قد يعترضهم في الطريق.

وعندما وصلوا إلىٰ **ذي الحُليفة** أحرموا بالعمرة. فلما اقتربوا من **مكة** بلغهم أن **قريشًا** جمعت الجموع لمقاتلتهم وصدِّهم عن البيت الحرام!!

فلما نزل النبي بـ**الحديبية** أرسل **عثمان بن عفان** إلىٰ **قريش** وقال له:

ـ أخبرهم أنّا لم نأتِ لقتال، وإنما جئنا عُمَّارًا، وادعُهم إلىٰ

الإسلام..

وأَمَرَه أن يأتي رجالًا بـ**مكة** مؤمنين ونساء مؤمنات، فيبشرهم بالفتح، وأن الله ﷻ مُظهرُ دينه بـ**مكة**.

أتىٰ **عثمان قريشًا**، فقالوا:

ـ إلىٰ أين؟

ـ بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلىٰ الله وإلىٰ الإسلام، ويخبركم: أنه لم يأت لقتال، وإنما جئنا عمَّارًا.

ـ قد سمعنا ما تقول، فانفذ إلىٰ حاجتك.

وكان أن تأخر عثمان، فظن المسلمون أن قريشًا قتلته أو أخذته، فجمعهم النبي ﷺ، وتعاهدوا علىٰ القتال أو الموت، في سبيل الانتقام لعثمان أو تحريره، وكانت تلك البيعة تحت الشجرة، التي سميت شجرة الرضوان، لما أنزل الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. ولكن تبيَّن أن عثمان بخيرٍ، فكفي الله المؤمنين القتال.

وقامت **قريش** بإرسال **عروة بن مسعود الثقفي** إلىٰ المسلمين فرجع إلىٰ أصحابه، فقال:

ـ أي قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك **كسرى** و**قيصر** و**النجاشي**، والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب **محمدٍ محمدًا**. والله ما انتَخَمَ نخامةً إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهَه وجلدَه، وإذا أمر ابتدروا أمرَه، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتَهم، وما يحدُّون إليه النظرَ تعظيمًا له!!!

والتقط أنفاسَه التي تلاحقت، ثم قال:

ـ وقد عرض عليكم خطةَ رُشْدٍ فاقبلوها.

كان عرض الرسول ﷺ هو عقد صلح مؤقت مع **قريش** من أجل إتمام العمرة دون نزاعات..

ثم أرسلت **قريش سُهيلَ بن عمرو** لعقد الصلح..

انعقدت جلسة الصلح.. وعندما رأى النبي ﷺ **سُهيلَ بن عمرو** قال:

ـ قد سهُل لكم أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

فتكلم **سهيلٌ** طويلًا ثم اتفقا على قواعد الصلح.. ثم دعا رسول **الله** ﷺ **علي بن أبي طالب** فقال له:

ـ اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال **سهيل**:

ـ أما الرحمن، فما أدري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنتَ تكتب.

فقال المسلمون:

ـ والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم

فقال الرسول ﷺ:

ـ اكتب: باسمك اللهمَّ.

ثم قال:

ـ اكتُب: هذا ما قاضى عليه **محمد** رسول الله.

فقال **سُهيل**:

ـ والله لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولكن اكتب **محمد بن عبد الله**.

فقال ﷺ:

ـ إني رسول الله، وإن كذبتموني، اكتب **محمد بن عبد الله**.

ثم تمت كتابة الصحيفة على الشروط التالية:

❋ أنَّ من أراد أن يدخل في عهد **قريش** دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد **محمد** ﷺ من غير **قريش** دخل فيه.

* أن يمنعوا الحربَ لمدة ١٠ سنين.

* أن يعود المسلمون ذلك العام علىٰ أن يدخلوا **مكة** معتمرين في العام المقبل.

* عدم الاعتداء علىٰ أي قبيلة أو علىٰ بعضٍ مهما كانت الأسباب.

* أن يرد المسلمون من يأتيهم من **قريش** مسلمًا بدون إذن وليه، وألا ترد **قريش** من يعود إليها من المسلمين.

وهكذا انعقد الصلح.. وقال الرسول ﷺ لأصحابه:

ـ قوموا فانحروا، ثم احلقوا.

فما قام منهم رجل، حتىٰ قالها ثلاث مرات. فلمَّا لم يقم منهم أحدٌ، فقام ولم يكلم أحدًا منهم حتىٰ نحر بدنه ودعا حالِقَه؛ فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتىٰ كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا..



٣٣ ـ خيبر

بعد إتمام صلح **الحديبية** مع **قريش** ، العدو الأكبر ، كان على الرسول ﷺ أن يلتفت إلى العدو الخبيث المرابض بداخل **المدينة** . . اليهود . .

لم ينسَ المسلمون ما بدر من اليهود من غدر وخِسَّة في يوم الأحزاب ، حين زحفوا من مكمنهم الحصين ، لجمع شمل أحزاب الدمار للقضاء على الدعوة الإسلامية تمامًا . . لذا كان لابدَّ من دكِّ هذا المكمن الحصين لإنهاء أمره وأمرهم . . كان هذا الحصن هو **خيبر** . . وهي مدينة بنى فيها اليهود حصونًا وقلاعًا ، ومخزونًا وفيرًا من الطعام والشراب والعتاد . . فيها يتجمع جيشُهم وأسلحتُهم . . ومنها انطلقوا إلى تحزيب الأحزاب .

إن الجديد في تلك الغزوة وما يختلف عن الغزوات السابقة ، هي حصون اليهود وقلاعهم التي أقاموا بها ، فمحاولة الهجوم عليهم تتطلب جهدًا ضخمًا وتعبئة مناسبة ومؤونة كافية للجيش لفترة طويلة ، والمسلمون لا يملكون هذه الطاقات في مقابل اليهود . . كما أن المسلمون لم يسبق لهم من قبلُ خبرةٌ في قتال أهل الحصون إلا ما كان من **بني قريظة** يوم حربهم!!

سار الجيش الإسلامي في طريقه إلى **خيبر** ونزل **عامر بن الأكوع** يحدو بالقوم يقول:

ـ اللهمَّ لولا أنتَ ما اهتدَينا

ولا تصدقنا ولا صلَّيْنا

فاغفِرْ فِداءً لكَ ما أبقينا

وأَلقِيَن سكينةً علينْا

وثبّتِ الأَقْدامَ إنْ لَاقَيْنا

إنَّا إذا صِيحَ بنا أَبَيْنا

وبالصِّياحِ عَوَّلوُا علَينا

ولما أشرف الجيشُ الإسلامي علىٰ **خيبر**، وقف النبي ﷺ يدعو ربه ويستنصره، فقال:

ـ اللهم ربَّ السماوات السبع وما أظلَلْن، ورب الأرَضين السبع وما أقلَلْن، ورب الرياح وما ذَرَيْنَ، ورب الشياطين وما أضللن، نسألك خيرَ هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها.

استيقظ اليهودُ في **خيبر** علىٰ صهيل الخيول وصليل السيوف، وتكبيرات هادرة.. إنه سرب الجيش الإسلامي علىٰ مشارف **خيبر** الحصينة قد عسكر، وتعاظم الرعب في نفوس اليهود..

وقال النبي ﷺ:

ـ خرِبَت **خيبر**، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباح المنذَرين.

حاصر المسلمون حصون **خيبر** متأهبين لقتال اليهود، وقد أخذوا أسلحتهم وأعدُّوا عدتهم لذلك.. وأراد رسول الله ﷺ أن يستثير همم أصحابه لمواجهة أعدائهم، فقال:

ـ لأعطينّ الرايةَ غدًا رجلًا يفتح الله علىٰ يديه، يحب اللهَ ورسولَه ويحبه اللهُ ورسولُه.

وفي الصباح، ترقب أصحاب رسول الله ﷺ، فكل منهم يبتغي أن يكون هو من يعطيه الرسول ﷺ هذه الراية، التي سيحملها من يدكُّ حصون اليهود.. وقال الرسول ﷺ:

ـ أين **عليُّ بن أبي طالب**؟

ثم سلَّمه الراية، وقال له:

ـ انفُذْ علىٰ رِسْلِك حتىٰ تنزلَ بساحتهم، ثم ادعهم إلىٰ الإسلام، وأَخْبِرْهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْر النَّعم.

بدأت المعركةُ.. وهاجم المسلمون بضراوة.. واستمات اليهود في الدفاع عن حصونهم وقلاعهم والتي كانت ـ حقًّا ـ منيعة.. واستمر القتال.. وتطايرت الدماء والرؤوس والصرخات.. وانعقدت العديد من

المبارزات التي أثبتت قوة وبسالة فرسان المسلمين.. وبات المسلمون هم الظاهرون..

وتهاوىٰ أول الحصون وهو: حصن **ناعم**، ثم فتح بعده حصن **القَموص**، ثم تهاوىٰ الحصون تباعاً كحبات عقد انفرطت، فتهشمت أرضًا!

وقد وصل المسلمون إلىٰ آخر حصون اليهود: **الوَطِيح** و**السُلَالم**، فحاصروهما حصارًا شديدًا، لبضع عشرة ليلة، حتىٰ إذا أيقن اليهود من الهزيمة ومن كونهم هالكين لا محالة، سألوا النبي ﷺ أن يحقن دماءهم وأن يسيِّرهم، ففعل... ثم سألوه أن يبقيهم علىٰ زراعة أرض **خيبر** مقابل نصف ما يخرج من ثمارها فأعطاهم ذلك، علىٰ أن يخرجهم متىٰ شاء..

وحاز المسلمون غنائمَ غزيرةً.



٣٤ ـ الغدر

قبيلتا **خزاعة** و**بني الدُّئِل**.. العداوة مشتعلة بينهما منذ أمد بعيد.. منذ ما قبل الإسلام.. والسبب أن جماعة من **خزاعة** اعتدوا على رجل من **بني الدئل** فقتلوه وسلبوا ماله.. فثأر **بنو الدئل** من **خزاعة** وقتلوا منهم رجلًا.. فعادت **خزاعة** وقتلت رجلًا من **بني الدئل**.. ثم انشغل الجميع بالدعوة الإسلامية، والصراع الدائر بين جميع المشركين وبين من أسلموا..

فلما كان صلح **الحديبية**، دخلت **خزاعة** في حلف الرسول ﷺ، ودخلت **بنو الدئل** في حلف **قريش**، فلما كانت الهدنة اغتنمها **بنو الدئل**، وأرادوا أن يثأروا لقتيلهم الأخير، فخرج **نوفل بن معاوية بن عروة الديلي** في جماعة من **بني الدئل**، فأغاروا على **خزاعة** ليلًا، وهم على ماء يقال له **الوتير** جنوب غربي **مكة**، فأصابوا منهم رجالًا، وتحاوزوا واقتتلوا..

ورفدت **قريشٌ بني الدئل** بالسلاح، وقاتل معهم من **قريش** من قاتل بالليل مستخفيًا.. وفرَّ رجال **خزاعة** إلى **الحرم**.. ووصل أيضاً رجال **بني الدئل** إلى **الحرم**.. بينما فرت **خزاعة** إلى قلب **مكة**، واحتموا في أحد الديار..

خرج **عمرو بن سالم الخزاعي** في أربعين من **خزاعة** حتى قدموا على الرسول ﷺ في **المدينة**، وأخبروه بما كان من **بني الدئل**، وبمن أصيب

منهم، وبمناصرة **قريش** لـ**بني الدئل** عليهم، فقال الرسول ﷺ:

ـ نُصرتَ يا **عمرو بن سالم**.

ثم خرج **بديل بن ورقاء الخزاعي** في نفر من **خزاعة**، حتىٰ قدموا علىٰ الرسولِ ﷺ، فأخبروه بمن أصيب منهم، وبمظاهرة **قريش** لـ**بني الدئل** عليهم، ثم رجعوا إلىٰ **مكة**..

هنا تأكد للرسول ﷺ أن **قريشًا** قد نقضت الصلح الذي انعقد في **الحديبية**.. فمناصرتها لـ**بني الدئل** علىٰ **خزاعة** بالسلاح وبعض رجال له هو بمثابة عدوان علىٰ المسلمين!

ولقد أرسل الرسول ﷺ إلىٰ **قريش** أنهم إما أن يبرؤوا من حلف **بني بكر**، أو يؤدوا دية قتلىٰ **خزاعة**، وإلا فالحرب!

إلا أن **قريشًا** قد رفضت أداء الدية.. وكان هذا للمسلمين بمثابة إعلان للحرب.

شعرت **قريش** بتأزُّم الموقف.. وأنهم طالما فعلوا ما يفهم أنه نقض للصلح، فإن المسلمين قد يُغيرون عليهم بحرب طاحنة.. فـ**قريش** تعلم جيدًا أن كفة القوة ـ حاليًا ـ وبمرور الوقت، باتت تميل إلىٰ ناحية **محمد** ﷺ وأصحابه.. وكان صلح **الحديبية** وِقاءً لـ**قريش** من قوة هؤلاء.. أما بعد مساندة **قريش** لـ**بني الدئل بن بكر** فقد احتدم الأمر.. لذا، قررت **قريش** أن تبعث قائدها **أبا سفيان** ممثِّلًا لها، ليقوم بتجديد الصلح.

وفي ذات الوقت، كان الرسولُ ﷺ يقول لأصحابه:

ـ كأنكم بـ**أبي سفيان** قد جاءكم ليشدَّ العقدَ، ويزيد في المُدَّة.

خرج **أبو سفيان** متجهاً صوب **المدينة**، فلقي **بديل بن ورقاء** بـ**عسفان** وهو راجع من **المدينة** إلىٰ **مكة** فقال:

ـ من أين أقبلت يا **بديل**؟

ـ سرت في **خزاعة** في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي.

ـ أوما جئت **محمداً**؟

ـ لا!

فلما راح **بديل** إلىٰ **مكة** قال **أبو سفيان**:

ـ لئن كان جاء **المدينة** لقد عَلَف بها النوىٰ!!

فأتىٰ مَبْرَكَ راحلتِه، فأخذ من بعرها ففتَّه، فرأىٰ فيها النوىٰ.. كعادته يعرف **أبو سفيان** من أين أتت الراحلة مِن علفها، وهو يعرف أنَّ النوىٰ هو علف أهل **المدينة**.. فقال:

ـ أحلف بالله لقد جاء **بديلٌ محمداً**!!

عند نزول **أبو سفيان** في **المدينة**، دخل على ابنته **أمِّ حبيبة** زوجِ الرسول ﷺ، وأراد أن يجلس على فراش الرسول ﷺ فطوتْه عنه، فقال:

ـ يا بُنَيّة، ما أدري، أرغبتِ بي عن هذا الفراش، أم رغبتِ به عنِّي؟

ـ بل هذا فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس!!

ـ والله لقد أصابك بعدي شرٌّ!!

لقد تألَّم **أبو سفيان** كثيرًا من وصف ابنته له.. ومن منعها إياه ملامسة الفراش، لمجرد أنه فراش **محمد** ﷺ.. إنّ ابنته تحب **محمدًا** ﷺ أكثر منه.. ولطالما سأل **أبو سفيان** نفسه: ما الذي يصنعه **محمد** بالبشر لكي يحبوه ويفضِّلوه على آبائهم وأبنائهم وأزواجهم.. بل وأنفسهم!!

إلا أن **أبا سفيان** ـ في هذا المقام ـ لم يسعه إلا أن يكمل مسيره نحو **محمد** ﷺ.. لعله ينجح في وصْل حبال الصلح.. لعله يتقي سيطرته وسيطرة دينه.

وصل **أبو سفيان** إلى الرسولَ ﷺ فكلمه، فلم يردَّ عليه شيئًا، ثم ذهب إلى **أبي بكر** فكلَّمه أن يكلم الرسولَ ﷺ، فقال:

ـ ما أنا بفاعل.

ثم أتى **عمر بن الخطاب** فكلمه، فقال:

ـ أأنا أشفع لكم إلىٰ رسول الله ﷺ؟ فو الله لو لم أجد إلا الذرَّ لجاهدتُكم به!!

ثم جاء فدخل علىٰ **علي بن أبي طالب**، وعنده **فاطمة**، و**الحسن** غلامٌ يدبُّ بين يديهما، فقال **أبو سفيان**:

ـ يا **علي**، إنك أمس القوم بي رحمًا، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائبًا، اشفع لي إلىٰ **محمد**!

ـ ويحك يا **أبا سفيان**، لقد عزم رسول الله ﷺ علىٰ أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

فالتفت **أبو سفيان** إلىٰ **فاطمة**، فقال:

ـ هل لك أن تأمري ابنَك هذا فيُجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلىٰ آخر الدهر؟

ـ والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد علىٰ رسول الله ﷺ.

فقال لـ**علي بن أبي طالب**:

ـ يا **أبا الحسن**، إني أرىٰ الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحني!!

ـ والله ما أعلم لك شيئًا يُغني عنك، ولكنك سيد **بني كنانة**، فقم فأَجِرْ بين الناس، ثم الحَق بأرضك.

ـ أو ترىٰ ذلك مغنيًا عنِّي شيئًا ؟

ـ لا والله ما أظنه ، ولكني لم أجد لك غير ذلك!!

فقام **أبو سفيان** في المسجد ، فقال:

ـ أيها الناس ، إني قد أَجَرْتُ بين الناس .

ثم ركِب بعيره وانطلق .

ولما قدم **أبو سفيان** علىٰ **قريش** قالوا:

ـ ما وراءك ؟

ـ جئت **محمدًا** فكلمتُه ، فوالله ما رد عليَّ شيئًا ، ثم جئت **ابن أبي قحافة** فلم أجد فيه خيرًا ، ثم جئت **عمر بن الخطاب** ، فوجدته أدنىٰ العدو ، ثم جئت **عليًّا** فوجدته أليَنَ القوم ، قد أشار عليَّ بشيء صنعتُه ، فو الله ما أدري هل يُغني عني شيئاً أم لا ؟

ـ وبِمَ أمرك ؟

ـ أمرني أن أجير بين الناس ، ففعلت!!

ـ فهل أجاز ذلك **محمدٌ** ؟

ـ لا!!

ـ ويلك ، إنْ زاد الرجلُ علىٰ أن لعب بك!!

ـ لا والله ما وجدت غير ذلك!!

وهنا أيقنت **قريش** أن الكارثة قد حلَّت.. فقد تجدد عداؤها مع هؤلاء المسلمون وهم ـ أي المسلمون ـ في أشد قواهم.. والقرشيون في أشد ضعفهم!



٣٥ ـ القرار

شعر الرسولُ ﷺ بعدما بدر من **قريش** من غدر ونقض للصلح ؛ أنَّ الأوانَ قد حان لاتخاذ القرار المصيري.. القرار الذي ينتظره بلهفة جميعُ المسلمين ، لاسيما المهاجرين.. القرار بفتح **مكة**.. العودة إلىٰ ما تركوا من أهل وديار وحياة.. السيطرة علىٰ بيت الله الحرام والكعبة المشرفة ، وإعلاء نداء **لا إله إلا الله ، محمد رسول الله** فيها ، وتنظيفها مما يغشاها من أصنام..

فقد تغير الحال ، وصار المسلمون أقدر علىٰ القتال ، وزاد عدد الموحدين لله والداخلين في دينه ، وقد زادت الثقة خاصة بعد دحر الأحزاب ، والقضاء ـ تقريبًا ـ علىٰ خطر اليهود..

كما أن مشركي **قريش** قد ضعُفوا وهانوا بعد انكسار **الأحزاب** عقب الحصار الذي كان.. كانت ضربة قاصمة للقرشيين وحلفائهم أفقدتهم الثقة في أنفسهم وفي حلفائهم خاصة اليهود.. إذ كانت الخدعة التي فرقت شملهم من شأنها أن تجعل **قريشًا** لا تأمن لحليف بعدها ، فتقوقعت علىٰ نفسها.. وكأنها تنتظر الفتح!!

ولقد اتخذ الرسول ﷺ قراره المصيري ، إلا أنه حرص علىٰ كتمان الأمر ؛ حتىٰ لا يصل الخبر إلىٰ **قريش** فتعدَّ العدة لمجابهته ، فقد كَتَمَ أمرَه حتىٰ عن أقرب الناس إليه ، فكَتَمَه عن صاحبه **أبي بكر الصديق** ، وزوجته

عائشة، فلم يعرف أحدٌ شيئًا عن أهدافه الحقيقية، ولا اتجاه حركته، ولا العدو الذي ينوي قتالَه..

وكان الرسولُ ﷺ قد أمر **عائشة** قبل أن يأتي إليه خبرُ نقض الميثاق بثلاثة أيام أن تجهِّزه، ولا يعلم أحد، فدخل عليها أبوها **أبو بكر الصديق**، فقال:

ـ يا بنية ما هذا الجهاز؟

ـ والله ما أدري!

ـ والله ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فأين يريد رسول **الله** ﷺ؟

ـ والله لا علم لي!!

شعر **الصديق** بأن في الأمر شيئًا.. خاصة بعد نقض الصلح منذ ثلاثة أيام.. شعر **الصديق** ـ بما يشبه اليقين ـ أن **الله** قد أوحىٰ إلىٰ رسوله ﷺ أمرًا.. وأن الأمر يتعلق بغزوة جديدة.. لكنها ليست كأي غزوة.. إن أمرها يتطلب كتمانه عن الجميع حتىٰ لحظة حاسمة.

كان لابد من الإمعان في الكتمان بالتمويه، لذا بعث الرسول ﷺ سريةً مكونةً من ثمانية رجال إلىٰ **إِضَم، وهو وادي المدينة الذي يجتمع فيه الوديان الثلاثة: بطحان، وقناة، والعقيق**، بقيادة **أبي قتادة بن ربعي**..

ولقد ذهبت السريةُ، فلم يلقوا جمعًا، فانصرفوا، ثم بلغهم أن رسول **الله**

ﷺ قد توجه إلىٰ **مكة**، فأصابهم فرح ونشوة شديدين، وأسرعوا لينضموا إلىٰ الجيش، فالتقوا بالنبي بـ**السُّقيا وهي موضع يقع في وادي القرىٰ**.

أعد الرسولُ ﷺ جيشًا وصلت عدته إلىٰ عشرة آلاف رجل، وبثَّ رجالَ العَسَس داخل **المدينة** وخارجها حتىٰ لا تنتقل أخباره إلىٰ **قريش**، ثم دعا **الله** تعالىٰ فقال:

ـ اللهم خُذْ علىٰ أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتةً ولا يسمعوا بنا إلا فجأة.

وعندما أكمل الرسولُ ﷺ استعدَاده للسير إلىٰ فتح **مكة**، كتب الصحابيُّ **حاطب بن أبي بلتعة اللخمي** كتابًا إلىٰ أهل **مكة** يخبرهم فيه نبأ تحرك الرسول إليهم، وأرسله مع امرأة مسافرة إلىٰ **مكة!**

أخبر الرسول ﷺ أصحابه بأن **حاطبًا** قد بعث برسالة تحذيرية إلىٰ **مكة** مع امرأة بعينها، وأرسل **عليًّا** و**الزبير** و**المقدادَ** فأمسكوا بالمرأة في "روضة خاخ" علىٰ بُعد اثني عشر ميلاً من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تُخرج الكتابَ فسلمته لهم..

ثم استُدْعِيَ **حاطب**، فقال:

ـ يا رسول الله، لا تعجل عليَّ، إني كنت امرأً حليفًا في **قريش** ولم أكن من أنفسها، وكان مَن معك من المهاجرين مَن لهم قراباتٌ يَحْمُون بها أهليهم وأموالَهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النَّسَبِ

فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام!!

فقال الرسول ﷺ:

ـ أما إنه قد صدقكم.

فقال **عمر**:

ـ يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق!!

فقال الرسول ﷺ:

ـ إنه قد شهد **بدرًا**، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد **بدرًا** فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.



٣٦ـ المسير إلى مكة

خرج الرسولُ ﷺ قاصدًا **مكة**، واستخلف على المدينة **أبا رُهم كلثومَ بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري الكناني**.. وكان عددُ الجيش عشرةَ آلافٍ، فيهم المهاجرون والأنصار، الذين لم يتخلف منهم أحدٌ، فسار هو ومَنْ معه إلى **مكة** يصومُ ويصومون، فلما وصل الجيشُ منطقةَ **الكديد الماء الذي بين قديد وعسفان** أفطر وأفطر الناسُ معه.. وفي منطقة **الجُحفة** لقيه عمُّه **العباسُ بن عبد المطلب** وقد خرج مهاجرًا بعياله، فسُرَّ الرسول ﷺ بإسلامه.

خرج **أبو سفيان بنُ الحارث الهاشمي القرشي** و**عبدُ الله بنُ أمية بنِ المغيرة المخزومي القرشي** من مكة، فلقيا الرسولَ ﷺ بـ**ثنية العقاب** فيما بين **مكة** و**المدينة**، فالتمسا الدخولَ عليه، فكلمته **أمُّ سلمة** فقالت:

ـ يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك وصهرك.

ـ لا حاجة لي فيهما؛ أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بـ**مكة** ما قال.

فلما خرج الخبر إليهما بذلك ـ ومع **أبي سفيان بن الحارث** ابنٌ له ـ، صُدِمِ الرجل ووَجِمَ، وقال:

ـ والله ليأذننَّ رسولُ الله أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهب في الأرض حتى نموت عطشًا أو جوعًا!!

فلما بلغ ذلك الرسولَ ﷺ رقَّ لهما، فدخلا عليه، فأنشده **أبو سفيان** قولَه في إسلامه واعتذاره عما كان مضى، فعفا الرسولَ ﷺ عنهما وقبل عذرهما.

تابع الرسولُ ﷺ سيرَه حتى أتى **مر الظهران**، وهو وادٍ شمال **مكة** بنحو عشرين كيلومترًا، فنزل فيه عشاءً، فأمر الجيشَ فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل على الحرس **عمر بن الخطاب**.

كان منظر العشرة آلاف نار مهيبًا، هادرًا بضوئه لا بصوته.. ولقد ألقى هذا المشهد الناري الرعبَ الشديد في نفوس وقلوب وعقول القرشيين.. لقد أيقنوا ـ بحقٍّ ـ ما وصل إليه المسلمون من عتاد وإمكانات.. وبدأوا في الانهزام داخليًّا..

عندما وصل الرسولُ ﷺ إلى **ذي طوى** وزَّع المهام على النحو الآتي:

جعل **خالد بن الوليد** على المَجْنَبَة اليمنى، وأمره أن يدخل **مكة** من أسفلها، وقال:

ـ إن عرَضَ لكم أحدٌ من **قريش** فاحصدوهم حصدًا، حتى تُوَافُوني

على **الصفا**.

وجعل **الزبير بن العوام** على المجنبة اليسرى، وبعثه على المهاجرين وخيلهم، وأمره أن يدخل من **كداء** من أعلى **مكة**، وأمره أن يغرز رايته بالحُجُون، ولا يبرح حتى يأتيه.

وجعل **أبا عبيدة** على **البياذقة** وبطن الوادي.

وبعث **سعد بن عبادة** في كتيبة الأنصار في مقدمة الرسولِ ﷺ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

أثناء المسير، قال الرسولُ ﷺ:

ـ يا **أبا هريرة** ادعُ لي الأنصار.

فدعاهم فجاءوا يهرولون، فقال ﷺ:

ـ يا معشر الأنصار، هل ترون أوباش **قريش**؟

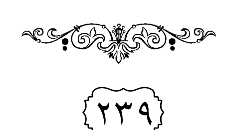
قالوا:

ـ نعم.

ـ انظروا إذا لقيتموهم غدًا أن تحصدوهم حصدًا!

وأخفى بيده ووضع يمينه على شماله وقال:

ـ موعدكم **الصفا**.



٣٧ ـ الفتح

دخلت قواتُ المسلمين **مكةَ** من جهاتها الأربع في آنٍ واحدٍ.. لم يستطع المشركون المقاومة، ولا الصمودَ أمام الجيش الزاحف إلىٰ أم القرىٰ!!

الدخول من جميع الجهات في ذات اللحظة شلَّ حركةَ القرشيين وتفكيرهم.. وأخذتهم الصاعقةُ الإسلامية.. وانكفأوا في جحورهم خامدين..

إلا أنه قد تجمَّع بعضُ رجال **قريش** ومنهم **صفوان بن أمية**، و**عكرمة بن أبي جهل**، و**سهيل بن عمرو** وغيرهم، مع بعض حلفائهم في موضعٍ اسمه "الخندمة" وتصدوا للقوات المتقدمة بالسهام، وصمموا علىٰ القتال.. فأصدر **خالد بن الوليد** أوامره بالانقضاض عليهم، وما هي إلا لحظات حتىٰ قَضَىٰ علىٰ تلك القوة وشتت شمل أفرادها، وبذلك أكمل الجيشُ السيطرةَ علىٰ **مكة**.

وكانت راية الأنصار مع **سعد بن عبادة**، فلما مرَّ بـ**أبي سفيان بن حرب** قال له:

ـ اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحل الحرمة، اليوم أذلَّ الله **قريشًا!**

فلما حاذىٰ الرسولُ ﷺ **أبا سفيان** قال له **أبو سفيان:**

ـ ألم تسمع ما قال **سعد**؟

ـ وما قال؟

وقال **عثمان** و**عبد الرحمن بن عوف**:

ـ يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له في **قريش** صولة.

فقال الرسولُ ﷺ:

ـ بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه **قريشًا**.

ثم أرسل إلىٰ **سعد** فنزع منه اللواء، ودفعه إلىٰ ابنه **قيس بن سعد بن عبادة**.

دخل الرسولُ ﷺ **مكةَ** وعليه عمامة سوداء بغير إحرام، وهو واضع رأسَه تواضعًا لله، حين رأىٰ ما أكرمه الله به من الفتح، حتىٰ إن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح التي فيها التنويه بنعمة الفتح وغفران الذنوب وإفاضة النصر العزيز..

ودخل الرسول ﷺ **البيت الحرام**، وكبَّر في نواحيه ثم صلىٰ، ودخل الكعبة هو و**أسامة** و**بلال** و**عثمان بن طلحة**، فأغلقها عليه ثم مكث فيها..

وبعد أن صلىٰ الرسول ﷺ هناك، دار في البيت، وكبّر في نواحيه، ووحّد الله، ثم فتح الباب، و**قريش** قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا يصنع، فأخذ بعضادتي الباب، وهم تحته، فقال:

ـ لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعدَه، ونصر عبدَه، وهزم الأحزابَ وحده، ألا كل مأثرةٍ أو مالٍ أو دم فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد ـ السوط والعصا ـ ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر **قريش**، إن الله قد أذهب عنكم نخوةَ الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من **آدم**، و**آدم** من تراب..

ثم تلا هذه الآية:

ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

كانت لحظة النصر الكبرىٰ لا ريب.. اللحظة التي طالما انتظرها المسلمون.. واستحضروا في تلك اللحظة لحظةً صعبة.. لحظةَ هاجروا من بيوتهم وأموالهم.. اليوم يعودون ظافرين منتصرين.. موحدين.. يعودون بقوة وعزةٍ.. وسلطان من الله ﷻ.. وسادات الكفر في **قريش** محنية رؤوسهم من الخوف والهزيمة..

كان مفتاح الكعبة مع **عثمان بن طلحة** قبل أن يسلم.. وكان الرسولُ ﷺ قد طلب من **عثمان بن طلحة** المفتاحَ قبل أن يهاجر إلىٰ **المدينة**، فأغلظ له القولَ ساعتها ونال منه، فحَلُمَ عنه وقال:

ـ يا **عثمان**، لعلك ترىٰ هذا المفتاح يومًا بيدي، أضعه حيث شئت!

ـ لقد هَلَكَتْ **قريش** يومئذ وذلَّت!!

ـ بل عَمَرتْ وعزَّت يومئذ!

وحين دخل الرسول ﷺ إلىٰ الكعبة، صار المفتاح في يده.. وارتجف **عثمان** وقد انبثق في ذهنه الحوار السابق.. وأراد **عليّ** أن يكون المفتاح له مع السقاية.. لكن الرسولَ ﷺ دفعه إلىٰ **عثمان** بعد أن خرج من الكعبة ورده إليه قائلًا:

ـ اليوم يوم بر ووفاء.

وحانت الصلاة، فأمر الرسولُ ﷺ **بلالًا** أن يصعد فيؤذن علىٰ الكعبة، و**أبو سفيان بن حرب** و**عتاب بن أسيد** و**الحارث بن هشام** جُلُوسٌ بفناء الكعبة.. فقال **عتاب**:

ـ لقد أكرم الله **أسيدًا** ألّا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه!

فقال **الحارث**:

ـ أما والله لو أعلم أنه حقٌّ لاتبعته!!

فقال **أبو سفيان**:

ـ أما والله لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء!!

فخرج عليهم الرسولُ ﷺ، فقال لهم:

ـ قد علمت الذي قلتم..

ثم ذكر لهم كلَّ ما قالوه.. وصُعق الثلاثة بالدهشة.. وقال **الحارث** و**عتاب**:

ـ نشهد أنك رسولُ الله، والله ما اطلع علىٰ هذا أحدٌ كان معنا فنقول أخبرك!!

بينما سيطر الوجوم علىٰ **أبي سفيان**.. ها قد راحت الكعبة أيضًا.. لقد أخذ **محمد** الكعبة كما أخذ كل شيء.. صار **محمدٌ** سيداً لـ**قريش** و**مكة**... والكعبة.. أشد ما آلمه هو فقدان الكعبة.. وكان صوت أذان **بلال** في أذنيه هو الإيذان بفقدها.. لم يعد لـ**أبي سفيان** شيء.. ترىٰ: ماذا سيفعل به **محمد** وأصحابه؟.. ماذا سيفعلون به وهو الذي كثيرًا ما آذاهم، بل هو أكثر مَنْ آذاهم.. بل لقد كان مبتغاه قتلهم، بل والتمثيل بجثثهم..

دارت تلك الأفكار نفسُها في رؤوس جميع كبار **قريش** وطُغَاتها.. وانتظروا جميعًا قولَ **محمد**.. وفِعْل **محمد** ﷺ!!

كانت بداية الفعل المنتظر.. أن أهدر الرسولُ ﷺ دماء تسعة نفر من المشركين.. وأمر بقتلهم وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة!!.. وهم: **عبد العزىٰ بن خطل التميمي**، و**عبد الله بن أبي سرح القرشي**، و**عكرمة بن أبي جهل القرشي**، و**الحارث بن نفيل بن وهب**، و**مقيس بن صبابة**

الكناني، و**هبار بن الأسود القرشي**، وقَيْنَتان كانتا لـ**ابن خَطَل**، كانتا تغنيان بهجو الرسول ﷺ، و**سارة** مولاة لبعض بني **عبد المطلب بن هاشم**، وهي التي وجد معها كتاب **حاطب بن أبي بلتعة**.

ومن هؤلاء من قُتل.. ومنهم من جاء مسلمًا تائبًا فعفا عنه الرسول ﷺ..

فأما **ابن خطل** فكان متعِّلقًا بأستار الكعبة، فجاء رجل إلىٰ الرسول ﷺ وأخبره فقال:

ـ اقتله.

فقتله..

وأما **ابن أبي سرح**، فجاء به **عثمان** إلىٰ الرسول ﷺ وشفع فيه فحقن دمَه، وقبِل إسلامه..

وأما **عكرمة بن أبي جهل** فقد هرب..

وأما **الحارث** فكان شديد الأذىٰ للرسول ﷺ بـ**مكة**، فقتله **علي**..

وأما **مقيس بن صبابة** فقتله **نميلة بن عبد الله**، وكان **مقيس** قد أسلم قبل ذلك، ثم عدا علىٰ رجل من الأنصار فقتله، ثم ارتد ولحق بالمشركين..

وأما **هبار بن الأسود** فهو الذي كان قد عرض لـ**زينب بنت الرسول** حين هاجرت، فنخس بها حتىٰ سقطت علىٰ صخرة وأسقطت جنينها، ففر **هبار** يوم **مكة**، ثم أسلم وحَسُنَ إسلامه..

وأما القينتان فقتلت إحداهما ، واستؤمن للأخرىٰ فأسلمت . .

كما استؤمن لـ**سارة** وأسلمت . .

لم يجد **أبو سفيان بن حرب** بُدًّا من الإقرار بالحقيقة . . الإسلام دين الحق . . **محمد** رسول الله بالفعل . . الحقيقة التي كان يصدُّقها ، وإنما أهال عليها ترابًا داخل عقله ونفسه . . تراب تراكم من غبار حب السيطرة والسلطة . . وكثير من الغرور . . وقليل من الخوف ! .

لكن . . . لم يجرؤ سيد **قريش** ـ السابق ـ علىٰ مواجهة الرسول وحده . . خاصة ولا تزال في قلب **أبي سفيان** غُصَّة ! ! . . لذا طلب من **العباس** عم الرسول ﷺ أن يصْحَبه . .

ووصل **أبو سفيان** بصُحْبة **العباس** إلىٰ حيث الرسول ﷺ . . في صدره شيء من رجف . . وفي قدميه تثاقل . . وفي عينيه كسرة . . وبصوت مبحوح نطق الشهادتين . . فقال رسول الله ﷺ :

ـ من دخل بيت **أبي سفيان** فهو آمن .

دخل **أبو سفيان بن حرب** إلىٰ **مكة** مسرعًا ونادىٰ بأعلىٰ صوته :

ـ يا معشر **قريش** ، هذا **محمد** جاءكم فيما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار **أبي سفيان** فهو آمن .

قالوا:

ـ قاتلك الله، وما تغني عنا دارُك؟!!

ـ ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن!!

وتفرق الناس إلىٰ دورهم وإلىٰ المسجد.

اجتمع جميع القرشيين قُرْبَ الكعبة.. ينتظرون حكم الرسول ﷺ فيهم.. يعلو رؤوسَهم الترقّبُ كفقاعات نارية تسلخ أفكارهم.. لابد أن **محمدًا** سينتقم.. هكذا فكَّر معظمُهم.. لابد أن أصحابه سيثأرون ممن نكَّل بهم وأجبرهم علىٰ الخروج تاركين ديارَهم وأموالَهم إلىٰ **يثرب** في يومٍ ما.. إنها عدالة السماء لا ريب.. لم يخطر علىٰ قلب أحدٍ من **قريش** أن يشهد هذا اليوم..

ووسط ترقُّبِهم المرتجف، قال الرسول ﷺ:

ـ ما تظنُّون أني فاعلٌ بكم؟

اندفعوا يقولون في أمِلٍ ـ فهم يعلمون نبل أخلاق الرسول ﷺ رغم موقفهم الصعب وأفعالهم السابقة ـ:

ـ خيرًا، أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ!!

ـ فإني أقول كما قال أخي **يوسف**: لا تثريبَ عليكم اليومَ، يغفر اللهُ لكم، وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطُلَقَاء!

أخيراً اطمأنت **قريش** جميعها.. نالت عفوًا لم تتخيَّلْه.. وانزاح عن كاهلها حِمْلُ نيران الانتقام منها..

بدأ الناسُ يدخلون في دين الله أفواجًا أفواجًا.. والرسول ﷺ يتلقَّىٰ البيعةَ منهم.. البيعة علىٰ الإيمان بالله وبرسوله وعلىٰ السمع والطاعة.. بدأ يبايع الرجالَ عند **الصفا**..

وعندما فرغ من بيعة الرجال بدأ بمبايعة النساء.. و**عمر** قاعدٌ أسفل منه، يبايعهن بأمره، ويبلغهن عنه..

ولقد ترددت **هند بنت عتبة** كثيرًا.. فهي تعلم كم آذت المسلمين.. وعظم أذاها بما فعلته بجُثّة أسد الله **حمزة بن عبد المطلب**.. إلا أنها علمت أخيرًا ـ بعد الفتح ـ أن الله حقٌّ وأنّ الرسول حقّ.. وأنه لا مناص من الإيمان بدين الله.. فجاءت **هند** متنكِّرةً خوفاً من الرسولِ ﷺ أن يعرفها، لِمَا صنعت بعمه **حمزة**..

وقال الرسولُ ﷺ للنساء:

ـ أبايعكن علىٰ ألا تشركنَ بالله شيئًا.

فبايع **عمر** النساء علىٰ ألا يشركن بالله شيئاً.. فقال الرسول ﷺ:

ـ ولا تسرقن.

فقالت هند:

ـ إن **أبا سفيان** رجل شحيح ، فإن أنا أصبت من ماله هنات ؟

فضحك الرسولُ ﷺ وعرفها ، فقال :

ـ وإنك لـ**هند!**

قالت :

ـ نعم ، فاعفُ عما سلف يا نبيَّ الله ، عفا الله عنك!!

فقال :

ـ ولا يزنين .

فقالت :

ـ أَوَتَزْنِي الحرة ؟

ـ ولا يقتلن أولادهن .

ـ ربيناهم صغارًا ، وقتلتموهم كبارًا ، فأنتم وهم أعلم!!

وكان ابنها **حنظلة بن أبي سفيان** قد قُتِلَ يوم **بدر** ، فضحك **عمر** حتىٰ استلقىٰ ، فتبسم الرسول ﷺ فقال :

ـ ولا يأتين ببهتان .

فقالت :

ـ والله إن البهتان لأمر قبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق!!

ـ ولا يعصينك في معروف .

ـ والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك.

وانتهت بيعة **هند**.. وأحسَّت ـ ولأول مرة في حياتها ـ بالطهر يتسرب إلىٰ نفسها، ويحل محل السواد السابق.. وجعلت تكسر صنمها، وتكسر معه عبوديتها للمادة الفانية.. وتقول:

ـ كُنَّا منكِ في غرور!!

جاءت **أم حكيم** امرأة **عكرمة بن أبي جهل** إلىٰ الرسولِ ﷺ فقالت:

ـ يا رسول الله، قد هرب **عكرمة** منك إلىٰ **اليمن**، وخاف أن تقتله فأمِّنه!

فقال الرسول ﷺ:

ـ هو آمن.

فخرجت **أم حكيم** في طلبه حتىٰ أدركت **عكرمة**.. فرجع معها..

فلما دنا **عكرمة** من **مكة** قال الرسولُ ﷺ لأصحابه:

ـ يأتيكم **عكرمة بن أبي جهل** مؤمنًا مهاجرًا، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت.

وجاء **عكرمة** إلىٰ الرسول ﷺ فوقف بين يديه، وزوجته متنقبة، فقال:

ـ يا **محمد**، إن هذه أخبرتني أنك أَمَّنْتَني.

ـ صدقت ، فأنت آمن .

ـ فإلامَ تدعو يا **محمد** ؟

ـ أدعوك إلىٰ أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة . . . .

حتىٰ عدَّ خصال الإسلام . . فقال **عكرمة**:

ـ والله ما دعوتَ إلَّا إلىٰ الحق وأمر حسن جميل ، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلىٰ ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثًا وأبرنا برًّا . . فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن **محمدًا** عبده ورسوله . .

فسُرَّ بذلك الرسولُ ﷺ ، ثم قال **عكرمة**:

ـ يا رسول الله ، علِّمْني خيرَ شيء أقوله .

ـ تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن **محمدًا** عبده ورسوله .

ـ ثم ماذا ؟

ـ تقول: أُشْهِد الله وأُشهِد من حضر أني مسلم مهاجر ومجاهد . .

فقال **عكرمة** ذلك ، فقال رسول الله ﷺ:

ـ لا تسألني اليوم شيئا أعطيه أحدًا إلا أعطيتكه .

ـ فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتُكها ، أو مسيرٍ وَضَعْتُ فيه ، أو مقام لقيتك فيه ، أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب

عنه!!

ـ اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلىٰ موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال مني من عرض، في وجهي أو وأنا غائب عنه.

ـ رضيتُ يا رسول الله، لا أدع نفقة كنت أنفقها في صدّ عن سبيل الإسلام إلا أنفقتُ ضعفَها في سبيل الله، ولا قتالًا كنت أقاتل في صدّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله..

أتىٰ **أبو بكر الصديق** بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال:

ـ هلا تركت الشيخَ في بيته حتىٰ أكون أنا آتيه فيه؟

قال **أبو بكر**:

ـ يا رسول الله، هو أحقُّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت.

فأجلس الرسول ﷺ **أبا قحافة** بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له:

ـ أسلِمْ.

فأسلم..

ولقد أصاب **أبا بكر** فرحٌ شديد بإسلام أبيه.. إذ لم يكن ينتظر هذا منه خصوصًا وأنه قد بلغ أرذل العمر..

طاف الرسول ﷺ بالكعبة.. وجعل يطعنُ الأصنامَ التي كانت حولها بقوس كان معه، ويقول:

ـ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا

ويقول:

ـ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ.

ورأىٰ في الكعبة الصورَ والتماثيلَ فأمر بها فكسرت.

وانتشت **صفية بنت عبد المطلب** فرحًا غامرًا.. ها هي تشاهد جميعَ أصنام الكفر تتكسَّر.. وبيد من؟.. بيد ابن أخيها الحبيب وأصحابه الأبرار.. أمنيتها حين كانت طفلة تتحقَّق الآن أجملَ تحقق..

نعم تكسرت جميع الأصنام.. وتكسرت معها أحلام النبوة الكاذبة في عقل **مسيلمة** و**سجاح**.. وأوهام المنافقين.. وغرور المشركين.. وكِبْر الكفار.. ووأد البنات.. وحروب الفجار.. والصراعات القبلية الجوفاء.. وبات القتال ـ فقط ـ في الحق وللحق، ولإعلاء كلمة الله..

بات للناس دينٌ.. وكرامة.. ولا ذلَّ إلا لله الواحد القهار..

نصر اللهُ الحقَّ نصرًا مبينًا..

وعلت في أرجاء **مكة**: "لا إله إلا الله.. محمداً رسول الله".

النهـــاية

فهرس



تستعرض الرواية التي بين يديك عزيزنا القارئ « من أثر الرسول ﷺ » عقدًا منظومًا من لآلئ الأحداث والقدوات العظيمة في تاريخ عصر النبوة، مع تركيز الرؤية من منظار شخصية جليلة هي السيدة صفية بنت عبد المطلب عمة النبي صلي اللّه عليه وسلم، وهي من الصحابة والقرابة، لتبرز الدور العظيم والمكانة البارزة للمرأة المسلمة في صدر الإسلام. فأتت الروايةُ نسيجًا ملهمًا من الأحداث المهمة للسيرة النبوية، مع بيان دور أبطال الإسلام من الصحابة والقرابة في دعم الإيمان والدفاع عنه في أهم مراحله، مع إلقاء الضوء على الدور الرائد للمرأة المسلمة، متمثِّلًا في شخصية فريدة، صحابية من أهل البيت، هي السيدة صفية بنت عبد المطلب رضي اللّه عنها، في قالَب أدبي ممتع، مع توخِّي صحّة المضمون العلمي كما تلتزم المبرة في جميع أعمالها العلمية والإبداعية.



هاتف : ٢٢٥٦٠٢٠٣ - فاكس: ٢٢٥٦٠٣٤٦

www.almabarrah.net

E.mail : almabarrh@hotmail.com

